الجزء الأول

الإسلام والحضارة والسياسة والقيم

١ ـ الإسلام والمعرفة(*)

أولاً، دعونى أشكر جامعة ماليزيا الإسلامية الدولية (IIUM) بصدق على منحها لى درجة الدكتوراه الفخرية فى الآداب. إنه لفخر لى سأظل أعتز به إلى آخر حياتى، وأنا أقدره تقديرًا خاصًّا؛ لأنه يأتى من جامعة أنشئت عام ١٩٨٣م للمساعدة على انتشال المجتمعات المسلمة من الرجعية والتخلف ليس فقط فى ماليزيا ولكن فى العالم بأسره. لا بد أن أُقِر بأن التقدم والنجاح الذى حققته جامعة ماليزيا الإسلامية الدولية بلغ درجة لافتة.

إذا درسنا تعاليم القرآن الحقة تجاه تعامل الإسلام مع التنمية الفكرية للبشر، لا يمكن إلا أن نُدْهش لأن أول كلمة نزلت إلى محمد ﷺ كانت «اقرأ». والقراءة لا بد أن تنقل المعرفة إلى القارئ. كما لا يوجد شىء فى القرآن يدل على أن القراءة والمعرفة لا بد أن تقتصرا على معرفة الدين الإسلامى. كانت رسالة الإسلام تخطو خطواتها الأولى فى ذلك الوقت، ولم يكن القرآن قد دُوِّن بعد. لذا، فسّر الفقهاء المسلمون القراءة وطلب المعرفة تفسيرًا واسعًا وبدءوا ترجمة منظمة لأعمال علماء اليونان وفارس والهند، وقاموا بتحليلها ودراستها، ثم أضافوا إلى بنيان المعرفة الموجود آنذاك. ففى بغداد وقرطبة، تم بناء مكتبات ضمت كتب العلم والرياضيات جنبًا إلى جنب مع كتب الدين.

لم تتكون الحضارة الإسلامية الكبرى إلا نتيجة لطلب المعرفة واكتسابها بجميع أنواعها، سواء فروع المعرفة الدينية أوغيرها من فروع المعرفة. كانت الحضارة الإسلامية فى ذلك الوقت تعيش فترة ازدهار، بينما كان الأوروبيون المسيحيون غرقى فى بحر من الجهل وخرافات العصور الوسطى. كانوا ينظرون إلى العلم باعتباره سحرًا أسود، فلم يدرسه سوى قلة من رجال الدين. لذا، اعتُبِر كثير ممن قاموا بوضع نظريات علمية مهرطقين وحُرِّقُوا على الصلبان أو أُعدِموا.

(*) خطبة بمناسبة تسلم درجة الدكتوراه الفخرية فى الآداب من جامعة ماليزيا الإسلامية الدولية (IIUM) فى ١٥ يناير ٢٠٠٤م.

ولكن بمرور القرون تغير تعامل المسلمين مع طلب المعرفة وتنمية الفكر، ثم أخيرًا أصبحت ممنوعة تمامًا.

فى الوقت نفسه تقريبًا، بدأت الأندلس فى التفكك إلى دويلات أو طوائف تحارب بعضها بعضًا. سقطت تلك الدويلات تدريجيًّا ـ واحدة بعد الأخرى ـ لقوات ملوك إسپانيا المسيحيين. من البديهى أن فقدان إسپانيا الإسلامية كان نتيجة ترك تعاليم الإسلام الأساسية. إننا اليوم لم نتعلم شيئًا من سقوط الأندلس. فدراسة الإسلام تُعطى تاريخ الأندلس قدرًا كبيرًا من الاهتمام، والمسلم العادى لا يعرف شيئًا عن الثمانية قرون من حكم المسلمين لإسپانيا، ويندهش كثير منهم عندما تُروى لهم هذه الحقيقة.

خلال أيام إسپانيا المسلمة المجيدة، تكلم مسيحيو إسپانيا ويهودها العربية، وكانوا على علم بالأدب والشعر العربى، حتى اشتكى قسيس يدعى الڤاروس عدم فهم مسيحيى إسپانيا للاتينية. وقد أسلم بعض الإسپان ولكن لم يتم قبولهم تمامًا من قِبَل العرب المسلمين. فى الحقيقة، فإن العرب المسلمين لم يعتبروا البربر ـ رغم كونهم مسلمين أيضًا ـ مساوين لهم، وهو خطأ يشترك فى تكراره بعض من العرب اليوم.

بعد رؤية الإنجازات الكبيرة التى قام بها العرب فى إسپانيا وغيرها، قرر مسيحيو أوروپا ـ خاصة فى فرنسا ـ أن يقطفوا زهور المعرفة من مكتبات الأندلس العظيمة، خاصة فى قرطبة وطليطلة، فبُذلت جهود كبيرة من أجل ترجمة النص العربى إلى اللاتينية، وتمت ترجمة القرآن نفسه.

كان صعود «المرابطون، والموحدون»، ورفضهم للتعليم إن لم يكن تعليمًا دينيًّا، نقطة تحول فى تاريخ المسلمين والأوروپيين على السواء. بالنسبة للمسلمين، كان ذلك بداية سقوط حضارة الأندلس. فى عام ١٤٩٢م، والذى قام فيه كريستوفر كولومبس بالإبحار عبر الأطلنطى ليكتشف للأوروپيين أرضًا جديدة يستحوذون عليها، سقطت آخر الطوائف ـ وهى طائفة غرناطة المحكومة من الناصريين ـ فى يد فرديناند وإيزابيلا. بعد ٨٠٠ سنة، ارتدت إسپانيا المسلمة لتصبح إسپانيا المسيحية. وعلى الرغم من وعدهم بحرية البقاء فى إسپانيا وممارسة عقائدهم، فسرعان ما وجد المسلمون أنفسهم غير مُرَحب بهم. كان لديهم الخيار بين التحول إلى المسيحية أو الطرد إلى شمال إفريقيا أو الموت.

وبالمناسبة، فقد لاقى اليهود بعد صعودهم تحت حكم المسلمين المصير نفسه تحت حكم الأوروبيين(*).

بالنسبة للأوروبيين المسيحيين، توافق سقوط إسپانيا المسلمة مع نهضتهم، ميلاد جديد لهم ونهاية للعصور المظلمة. أسهمت المعرفة المكتسبة من دراسة الترجمات العربية من أعمال اليونانيين وغيرهم مع الإسهامات الأصلية من العلماء المسلمين العظام، فى النهضة الأوروپية. أرشد الأسطرلاب العربى البحارة الأوروپيين عبر المحيطات ليكتشفوا بأنفسهم أراضى جديدة للاحتلال والسكن. مع مرور الوقت، ازدادت سيطرة الأوروپيين على العالم بفضل علم المسلمين.

مد المحاربون الأتراك العثمانيون فى شرق المتوسط من عمر العالم الإسلامى. ولكن طلب المعرفة لم يعد قط كسابق عهده فى القرون الأولى من ظهور الإسلام. كانت هناك لحظات رائعة، ولكن فى النهاية تفككت الإمبراطورية التركية المسلمة. بينما كانت أوروپا تقوم بثورة صناعية، لم يكن هناك ظاهرة مشابهة فى أى مكان بالعالم الإسلامى. لم يستوعب حرفيو العالم الإسلامى العظام ــ الذين صنعوا منتجاتهم بأيديهم وبشق الأنفس ـ فكرة طريقة الإنتاج لاستهلاك الجموع وما يترتب عليها من متطلبات. لا تزال دمشق ـ عاصمة الحرير والصناعات المعدنية والتى غذت الدول الواقعة على طريق الحرير وأوروپا ــ مركزًا للصناعات اليدوية الجميلة إلى اليوم، ولكنها لم تبذل محاولات جادة للابتكار أو حتى تقليد طرق الإنتاج الجديدة لتتواكب مع زيادة الطلب من سوق جموع المستهلكين. أصبح تراجع الحضارة الإسلامية مستمرًا؛ لأن المعرفة غير المتعلقة بالدين الإسلامى أصبحت مهملة أو ممنوعة. من ناحية أخرى، أدت الدراسة المركَزة للدين إلى ظهور تفسيرات عديدة فرقت الأمة إلى شيع وفرق مختلفة مع بعضها البعض. أضاف التفرق إلى سنة وشيعة وفرق أخرى إلى الضعف الذى تسبب فيه نقص المعرفة. ولم يستطع المسلمون أن يتعاونوا مع بعضهم منذ ذلك الوقت حتى للدفاع عن الأمة والدين.

(*) يمكن للقارئ الرجوع إلى المقال الذى نشره الناشط الإسرائيلى يورى أڤينرى على موقعه على النت... وفيه يرد على البابا بندكت، ويؤكد كيف ازدهر اليهود تحت الحكم الإسلامى فى الأندلس، ولما استرد المسيحيون الأندلس، أظهروا تعصبًا دمويًّا تجاه اليهود والمسلمين فكان عليهم إما التنصر، وإما الهجرة من البلاد، أو الموت ـ المترجم.

تعانى الأمة المسلمة اليوم أضعف حالاتها. لم تستطع الدول المسلمة أن تتكيف مع العالم المتغير من حولها. يريد البعض أن يرجعوا إلى البيئة الاجتماعية والسياسية التى كانت موجودة فى زمن الرسول الكريم، ظانين أنهم لا يستطيعون أن يكونوا مسلمين إلا فى تلك البيئة. ما يقولونه هو إن الإسلام لا يصلح إلا للقرن الأول الهجرى أو السابع الميلادى. إن هذا ما هو إلا رفض لعالمية الإسلام ولصلاحيته لكل زمان ومكان.

لعل هناك أسبابًا لخوف المسلمين من المعرفة والتنمية عند النظر إلى العالم غير الإسلامى اليوم، فلقد زادت العلمانية والإلحاد فى الدول الأوروبية المتطورة.

لقد أصبحوا متعالين بسبب معرفتهم العلمية حتى ظنوا أن لا حاجة لهم إلى الله لكى يصنعوا أو يبتكروا شيئًا. فبدلاً من التوالد الطبيعى أصبحوا يعملون على استنساخ كل المخلوقات الحية، بما فيها الإنسان. لقد تعلموا القليل عن الكيفيات وأصبحوا يعتقدون أنهم يستطيعون نسخ أى مخلوق. يستطيعون اليوم السفر عبر الفضاء والصعود إلى القمر، كما يخططون للصعود إلى كواكب أخرى مع رغبتهم فى تملكها.

يظنون أنه لا يوجد شىء يعجزون عن فعله إذا توافر المال اللازم، وكنتيجة لذلك أصبحوا ماديين بشكل كبير.

الطمع هو دافعهم الأساسى. يريدون أن يكسبوا المزيد والمزيد من المال بغير مراعاة للضرر والتعاسة التى يسببونها للآخرين ولأنفسهم خلال ذلك.

لقد فقدوا كل القيم الأخلاقية. هذا هو اعتقادهم فى الحرية والذى يُسمح فيه بأى شىء بلا قواعد أو قيود. تم الاستغناء عن مؤسسات الأسرة والزواج. إنهم يتسببون فى تحطيم نواة المجتمع ويعيشون مع أطفال أبناء سفاح ويفترق الآباء والأمهات بغير استخدام أى نظم من أعراف أو تقاليد أو قوانين. إنهم يُحلُّون الآن الزواج من الجنس نفسه وكل أنواع ممارسات المثلية الجنسية. حتى قساوستهم يستطيعون أن يظهروا مثليتهم جهارًا. إن الخطيئة التى حرمها دينهم نفسه لم تعد تعتبر محرمة.

إنهم يبتكرون ويصنعون كل يوم أسلحة أكثر قدرة ليس للدفاع عن النفس ولكن للتهديد ومهاجمة الآخرين الذين لا يعجبونهم لأنهم مختلفون عنهم. إن مجدهم يتجسد فى حقيقة أنهم يستطيعون أن يفنوا الجنس البشرى عن آخره.

من الواضح أن نجاحهم الدنيوى قد دمر معتقداتهم الروحانية وجعلهم متعالين. إنهم يظنون أن معرفتهم العلمية تناقض كل التفسيرات الروحانية تجاه الخلق، فما الحاجة إذن إلى الله وإلى الدين.

ما لم يتوقفوا لسؤال أنفسهم عنه هو لماذا تحدث الأمور بهذه الطريقة التى تحدث بها؟ ففى كل مرة يحاولون أن يفكروا لماذا، ينتهون بأن يفسروا كيفية حدوثها.

إنهم يعلمون أن اتحاد ذرتين من الهيدروچين مع ذرة من الأكسچين ينتج عنه الماء. هذا يفسر الكيفية. ولكن لماذا؟ لماذا الهيدروچين وليس عناصر أخرى، لماذا ليس الكلورين والنيتروچين مثلاً. لماذا؟ بأى طريقة يحاولون أن يفسروا ذلك فهم لا يجدون تفسيرًا. وهم لا يجدون تفسيرًا كذلك لسبب الأشياء التى حولهم أو التى تحدث لهم. وبعد إحباطهم من ذلك فهم يرجعونها إلى الطبيعة. ولكن ما هى الطبيعة؟ لا توجد إجابة لذلك سوى القول إن هناك قوة تخلق وتعطى كل شىء خصائصها وصفاتها.

إن لم يكونوا بهذه الضحالة فى تفكيرهم إذًا لعلموا أن العلم يؤكد وجود الله. إن اتساع الكون بعديد نجومه والتى بينها ما هو أكبر عدة مرات من الشمس، والمجرات التى تفصل بينها مسافات تقاس بالسنوات الضوئية هى ظواهر تدل على مقدار العظمة الذى يعلو به الخالق. إن العقل الضحل هو الذى يستنتج أنه لأننا نعرف القليل عن كيفية حدوث الأشياء وكيفية تصرفها، فإننا لا نحتاج إلى الروحانية أى الإيمان بالله. إن العلماء الأكثر معرفة بسعة الخلق وتعقيده يجب أن يتواضعوا وأن يتطلعوا إلى القوة التى تخلق كل هذه الأشياء. يجب عليهم، أكثر من أى أناس آخرين، أن يتحلّوا بإيمان أكبر بكثير بالخالق وبعظمته.

إن ما نراه يحدث للعالم المتطور بماديته وما فيه من نقص أخلاقى؛ من إلحاده وعلمانيته وخوائه الروحى، هو ليس فقط بسبب معرفته أو ثرائه المادى ولكن بسبب الفهم الخاطئ للمعرفة العلمية التى يمتلكها. إن ما يعرفونه هو جزء صغير من نموذج مصغر للخلق. هناك الكثير جدًّا عن الخلق الذى لا يعلمونه ولا نعلمه نحن. إنهم لا يزالون فى غاية الجهل ولا يصح منهم أن يكونوا بهذا التعالى، أن يظنوا أننا لم نعد نحتاج إلى الخالق، وأننا لا نحتاج لا إلى الله ولا إلى دينه. فى الحقيقة، فإننا نحتاج إلى الدين وإلى الإسلام لله أكثر من ذلك؛ لأن الله أكثر قدرة بكثير مما عُلِّمنا ومما نعتقد.

لا يجب على العلم أن يجعلنا نفقد إيماننا. يجب على العلم أن يقويه، أن يجعلنا أكثر تواضعًا وأكثر تقديرًا لعظمة الله ودينه.

يجب علينا ـ نحن المسلمين ـ أن نخشى العلم والتقدم المادى فقط إذا جعلانا نفقد إيماننا بديننا وبالله. ولكن المادية والانهيار الأخلاقى الذى أصاب الأوروبيين ليسا بسبب العلم أو الثراء المادى، ولكنهما نتيجة لفهم ضحل لدينهم، فشلَ فى فهم وتقدير أن العلم لا يجيب عن كل الأسئلة، خاصة سؤال «لماذا؟»، وأنه وبرغم كل الثراء والقوة التى يستطيعون أن يغنموها، فإلى التراب يعودون. إنهم لا يزالون بشرًا يموتون فى النهاية بصرف النظر عن مدى قوتهم أو مهارتهم. فى النهاية فلا بد أن يسلموا لله. إن تعاليهم لا محل له ولا يوجد له سبب مقبول. إذا لم يشأ الله، فلا شىء مما يفعلونه يمكن أن يحدث.

يجب علينا كمسلمين أن نذكر أنفسنا إلى الأبد بأننا فانون، وبأننا نقضى فترة وجيزة جدًّا على هذه الأرض التى بلغت من العمر ملايين السنين، وبعدم قدرتنا على فهم لماذا تحدث الأشياء كما تحدث، وأخيرًا بحاجتنا لأن نسلم لعظمة الله الذى يخلق كل شىء. إذا أدركنا ضآلتنا نحن وإنجازاتنا بالمقارنة لعظمة الله فإننا لن نفقد إيماننا بالإسلام وبالله الخالق العظيم. إننا إذًا لن نحيد عن إيماننا بسبب العلم أوالثراء المادى أوالقوة. إن كل ما نفعله وننجزه مؤقت ولا دائم سوى وجه الله وقدرته على الخلق.

مع إدراكنا لذلك، فإننا يجب أن نطلب العلم، وأن نسعى للمعرفة ونجمع المال فى خدمة الله؛ للدفاع عن دينه وعن الأمة ولحمايتهما. يجب علينا ألا نسمح لأحد بأن يسفِّهنا أو يسفِّه ديننا. يجب علينا بقدرتنا العقلية وقوتنا المادية أن نعمل على استمرارية الدين الحق.

يجب أن نرفض تلك التعاليم التى تتعارض مع أسس الإسلام، التى تنكر السعى من أجل المعرفة باستثناء المعرفة الدينية، لتجعلنا جهلاء وغير قادرين على الاستفادة مما سخر الله لنا على الأرض، ولتضعفنا وتعرضنا وديننا للاضطهاد والإهانة. إننا ندعو الله كل يوم أن يؤتينا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة، ولكن الله قد حذرنا من أننا لن يستجاب لدعائنا إلا إذا غيرنا ما بأنفسنا.

وهذا التغيير هو ما نستطيع وما يجب علينا أن نفعله بتمكننا من كل المعارف الضرورية، وتملكنا ثراءً ماديًّا يمكننا من إحداث ذلك التغيير.

أريد أن أشكر مرة أخرى جامعة ماليزيا الإسلامية الدولية على منحها لى درجة الدكتوراه الفخرية فى الآداب. لقد ولدت مسلمًا ولكنى درست دينى لأن دراستى كطبيب شكلت فى البداية تهديدًا لإيمانى. لقد سألت نفسى عدة أسئلة كانت تؤرقنى.

إن العلم يتعامل مع الحقائق التى تبدو وكأنها تخالف المعتقدات الصِرفة، وتتعارض مع الإيمان الذى رُبيت عليه. هل يجب علىّ أن أرفض واحدًا لحساب الآخر أم هل علىّ أن أقبل الاثنين أو أرفض الاثنين؟ أنا أعرف كثيرين ممن يعتقدون أنهم أذنبوا ويحاولون أن يعوضوا انهماكهم العلمى بخداع أنفسهم عن طريق تأدية عبادات أكثر إرهاقًا، برفض التدريب العلمى الذى تلقوه.

ولكن دراستى للدين والعلم أقنعتنى بأن الاثنين متوافقان، وأن العلم هو فى حقيقة الأمر يشمل ويقوى الإيمان، لأنه يظهر أن قدرة الله هى أكثر مما نُقاد لنعتقد فيه. لا يمكن للعلم أن يحتل مقعد الإيمان، لأن إنجاز العلم محدود بإرادة الله. ولا يمكن للعلم أن يجيب عن التساؤل «لماذا؟».

إن من يدرسون الدين فقط لن يقدروا قدرة الله ودينه تقديرًا تامًا، ومن يدرسون العلم فقط سيصبحون متعالين بدرجة لا تمكنهم من تقدير معنى الإيمان واحتياجنا إليه وضعف الإنسان الفانى.

يجب على الإنسان المتدين أن يدرس العلم دراسة وافية، ويجب على المسلم العلمى أن يدرس أصول الدين، لكى ينجوا بنفسيهما ولكى يساعدا على نجاة العالم من تعالى نصف العالم أو نصف الجاهل.

فى العالم الجديد، يجب على المسلم بإيمانه وبمعرفته المتنوعة أن ينير الطريق؛ الطريق إلى عالم سليم دينيًا وأخلاقيًا، وثرى ماديًا وعميق المعرفة.

٢ ـ الأمم المتحدة والنظام العالمى الجديد(*)

أُسِّست الأمم المتحدة لخدمة الدول الأعضاء بها، أمم العالم. كانت هذه هى مهمتها، خدمة كل الدول الأعضاء. كُتب ميثاقها باسم «نحن الشعوب». ولكن للأسف، خذلت الهيئة الدولية الشعوب ولم تصل إلى ما توقعه أعضاؤها منها. تم قرصنتها من قِبَل البعض لخدمة أغراضهم، وعندما لا يستطيع هؤلاء القلة قرصنتها، يتم إهمالها وتجاهلها. يُقال إن التاريخ يعيد نفسه، فما حدث للأمم المتحدة قد حدث من قبل لعصبة الأمم. قتل العُصْبَةَ أكثرُ الأعضاء نفوذًا بسحب الدعم. هذا ما يتكرر اليوم مع الأمم المتحدة.

لقد نشأت الديمقراطية من أجل خدمة الكل، فإن لم يكن الكل فالأغلبية، وللحد من انتهاك الحقوق على يد الأقلية. لذا يجب على الأمم المتحدة؛ حتى تنجح أن تكون ديمقراطية. لقد سعدنا لأن المؤسسين والمساندين للأمم المتحدة كانوا الديمقراطيات العظيمة. ولكن عندما فشلت الطريقة الديمقراطية فى خدمة مصالح ذوى النفوذ فى الأمم المتحدة، ألقت الديمقراطيات العظيمة بالديمقراطية من النافذة وأحلت مكانها الوجه القبيح للديكتاتورية.

كان من السهل جدًّا أن تتحدث تلك الدول عن العدل والعمل النظيف عند تأسيس الأمم المتحدة. لقد آمنت الدول الأكثر نفوذًا ـ التى احتشدت لتكوين الأمم المتحدة ـ بأن عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية سوف يتم فيه استعادة مواقع سيطرتها قبل الحرب، مع الميزة الإضافية للخضوع التام من قِبَل الدول التى كانت تتحداهم. إنهم، أى المنتصرين سوف يستعيدون مستعمراتهم وما تم انتدابهم إليه، بالإضافة إلى تلك التى كانت تحت سيطرة المحور. فى هذا السيناريو المجيد، لم يكن هناك خطورة من التحدث

(*) خطبة فى نادى دينرز بمكتب تروس أنجكاتان تنتيرا، فى فندق رينا ساش فى كوالالمبور، ماليزيا، فى ١١ مايو ٢٠٠٤م

عن الحريات والحقوق التى يجب على الكل أن يتمتع بها، ولكن كل ذلك سيصبح مجرد سفسطة كلامية.

عندما يتم التعبير عن مبدأ أو مذهب أو حتى ديانة، فإنه يمر بشرح وإعادة تأويل حتى تضيع الفكرة الأصلية وتصبح شيئًا مختلفًا كلية. لهذا، فإن المساواة والأخوة والحرية التى نادت بها الثورة الفرنسية تحولت إلى الديكتاتورية الشيوعية والتى يتم فيها ببساطة تصفية المعارضين. حتى فى ذلك الوقت لم يكن هناك مساواة أو أخوة بين الزملاء الحكام والزملاء المحكومين.

عندما تمت المناداة بالحرية عن طريق الأمم المتحدة، كانت النتيجة غير المتوقعة هى تفكك إمبراطوريات مؤسسى الأمم المتحدة الأوروبيين العرقيين. نتج عن هذا تكون عدد كبير من الدول الفقيرة، ولكن المستقلة. بوضعها الجديد كدول بدلاً من مستعمرات تم قبولها كأعضاء فى الأمم المتحدة.

درجت هذه الدول على أن تنتقد الأعضاء ذوى النفوذ المؤسسين وأن تعارضهم. بالطبع فإن الأفكار الديمقراطية العظيمة، كحرية التعبير والفعل لكل عضو سوف تكون فى غير صالح الدول ذات النفوذ. لقد أمّنوا لأنفسهم مقاعد متميزة فى مجلس الأمن بإعطاء أنفسهم عضويات دائمة مع حق النقض (الفيتو)، ولكن أفزعهم أن الدول الأعضاء الجدد المنهكين بالفقر قد رفضوا دعم المؤسسين على طول الخط.

مع تزايد عدد أعضاء الأمم المتحدة، أصبحت الديمقراطية داخل نظام الأمم المتحدة أمرًّ طعم فى فم دعاة الديمقراطية. بدلاً من الديمقراطية توجهوا إلى حكم البعض ثم ديكتاتورية الدولة الأقوى على العالم كله. لقد عدنا اليوم إلى أيام الإمبريالية الأوروبية عندما كانت القوة هى الحق.

إن أكثر تجاهل واضح لمبدأ عالم متحد يعمل من أجل الصالح المشترك هو قرار اثنين من المؤسسين، الولايات المتحدة والمملكة المتحدة، بالتجاهل التام للأمم المتحدة والهجوم على العراق بحجة الرد على تهديد العراق باستخدام أسلحة الدمار الشامل ضد بريطانيا خلال ٤٥ دقيقة من إصدار صدام حسين الأمر بذلك.

بالطبع لا يجب علينا أن ندعم الأعمال الوحشية التى قام بها صدام. ولكن ما

الفارق بين التعرض للقتل على يد صدام وما بين أن يكون القتل على يد الجنود الأنجلو ـ أمريكان وعراقيين آخرين خلال الحرب وفى فترة احتلال العراق؟ أو ما الفارق بين أن تقتل على يد الجنود الأمريكيين وهم يردون على المقاومة العراقية وبين أن تقتل على يد صدام؟ وقد أظهرت تقارير مؤخرًا أن الجنود الأمريكيين والبريطانيين ليسوا أقل وحشية مما يدَّعون عن رجال صدام. من المستبعد أن الغزو والتدمير والقتل وسوء المعاملة إلخ. سوف يحقق تغيرًا فى النظام ينجح بفعّالية فى حكم عراق ديمقراطى يعيش فى سلام.

الديمقراطية ليست أسهل نظام للحكم. فى بلد منقسم بالدين والعرق، من المستبعد أن تنجح الديمقراطية. من الحماقة أن نظن أنه بالقفز إلى الديمقراطية سوف تحل مشاكل الدول. الأكثر حماقة هو أن ندمر ونقتل لكى نفرض ديمقراطية من الخارج.

ولكن إذا نجحت الولايات المتحدة والدول المتحالفة معها فى القيام بعملية تغيير النظام فى العراق باستخدام القوة العسكرية، فماذا سيكون الترتيب المنطقى؟ ستعلن الولايات المتحدة قائمة للدول التى لا تحبها الولايات المتحدة وترى أنها غير صالحة، ويوجد عدد لا بأس منها يمكن أن تندرج تحت ما تسميه أمريكا الدول الفاشلة والمارقة وأعضاء محور الشر، كدول تحتاج أنظمتها إلى تغيير. ستنشغل الولايات المتحدة والدول المتحالفة معها، خاصة الإمبراطوريات القديمة كبريطانيا، فى غزو الدولة تلو الأخرى لتقوم بعملية التغيير. سوف تكون الأمم المتحدة غير ذات تأثير.

يقال إن الحاجة إلى تغيير الأنظمة هى لأن هذه الأنظمة غير ديمقراطية. ولكن هل يمكن اعتبار حكومة مفروضة بواسطة الدول ذات النفوذ على أنها حكومة ديمقراطية؟

إذا تم انتخاب ممثلين ذوى شعبية حقيقية، غالبًا ما سيكونون معادين للولايات المتحدة. سوف تشعر الولايات المتحدة بالحاجة إلى تغيير آخر للنظام، ربما عن طريق غزو ثانٍ وقتل المزيد من البشر، وتدمير المزيد من المدن والقرى فى العراق، من المرجح أن تأتى الانتخابات بالشيعة إلى الحكم. إن الشيعة يكرهون الأمريكيين وسينشطون فى مهاجمتهم بطريقة أو بأخرى، بما فيها الاعتداءات الإرهابية. فى هذه الحالة، فقد نتج تغيير النظام بطريقة ديمقراطية، ولكن الحكومة المنتخبة قد تحاول بدافع كراهية الولايات

المتحدة تطوير أسلحة دمار شامل لكى تحارب الأمريكان المكروهين والمتحالفين مع الولايات المتحدة من أعوانها. يمكن أن يدعم هؤلاء المنتخبون الإرهابيين وأن يوفروا لهم الملجأ. هل سيتم السماح لهم بعمل ذلك على أساس أنهم قد انتخبهم الناس على أساس ديمقراطى؟

إن من يعتقدون أنهم يستطيعون إحداث تغيير النظام عن طريق القوة وأن يضعوا مكانه حكومة ديمقراطية هم فى منتهى السذاجة أو بلهاء. إنهم لم يتعلموا شيئًا من تاريخ الإمبريالية الأوروبية، من الدمار الفظيع الذى شكلته الحرب العالمية الثانية وقنابلها النووية، ومن صراعات الاستقلال المريرة التى خاضتها الشعوب المحتلة. إنهم يؤمنون بأنهم يستطيعون باستخدام القوة الغاشمة أن يُخْضعوا البشر، وأن يحكموهم كما فعلوا إبان الإمبريالية الأوروبية.

أولاً، يجب أن يعلموا أن الفائزين فى حرب ما لا يمكن أن يضموا أراضى يحكمونها كما يشاءون. من الممكن أن تستسلم الحكومات، وأن توقع اتفاقيات سلام وأن تقبل وجود قوات المنتصرين على أراضيها، ولكن يمكن أن يكون للشعوب أفكار أخرى.

من الممكن أن يريدوا الاستمرار فى القتال أو أن يهاجموا قوات الاحتلال وأن يوافقوا على دفع ثمن باهظ بالمقابل. على الجانب الآخر، وبغض النظر عن الثمن الباهظ لبقاء قوات فى أرض العدو السابق، فإن المنتصرين سوف يتحملون أيضًا ثمن قتال المتمردين لسنوات وسنوات. لن يكون أمام المنتصرين ما يظهرونه عن انتصارهم سوى تيار من نعوش ملفوفة بالأعلام. إنه من الخطأ أن نظن أن التمرد يمكن أن ينتهى باستخدام القوة. إنهم ليسوا قوات نظامية تأتمر بأمر القواد الأعلى رتبة أو بأمر الحكومة. إنهم لن يلتزموا باتفاقيات سلام، إلخ. إنهم أناس يؤمنون ـ حتى لو كان بمغالاة خاطئة ـ بقضاياهم، مدفوعين بالكراهية الشديدة للطغاة الأجانب. إن القبض على صدام لم يكن ليوقف القتال أو حتى يقلله، بل إنْ كان هناك تغيير فهو الزيادة فى حدة القتال. مع اغتيال الشيخ ياسين والرنتيسى، تضخمت الكراهية فى صدور العراقيين أيضًا. وسيشاركهم الفلسطينيون وآخرون من دول أخرى ممن يؤمنون بأنه إذا تم السماح للولايات المتحدة وبريطانيا بالإفلات بأجندة تغيير النظام فقد تكون بلادهم هى التالية.

إنهم قد لا يحبون حكوماتهم، ولكن وكما هى الحال فى العراق، فإنهم لا يحبون الأمريكيين ولا البريطانيين كذلك.

إن هجمات إرهابية على يد قوات غير نظامية ليست كالحرب التقليدية. ليس هناك ميثاق شرف، ولا اتفاقية جنيف. لا توجد معركة حيث تتقاتل الجيوش وتحدد من المنتصر. ولا يمكن أن يحدد تقدم الأسلحة وتعقيد التقنية العسكرية ومهارة القادة النتيجة الناجحة للمعركة. يمكن أن يكون وراء الإرهاب أى إنسان، فى أى مكان بأى أسلحة فى متناول اليد. يمكن أن يصاب إنسان فى أى مكان فى العالم على بعد آلاف الأميال بعيداً عن بلده أو عن مواقع الحرب، أو كما كان الحال فى إسپانيا، يمكن تفجير قطار. فسيتحتم بعد ذلك إنفاق المليارات لحراسة محطات السكك الحديدية والبنايات المرتفعة، والنوادى الليلية، إلخ، ولكن لا توجد طريقة لحماية كل الملايين المستهدفة. ولا يمكن حماية الأهداف، كل الأهداف إلى الأبد. فى اللحظة التى يتراخى فيها الأمن، يمكن أن تقع هجمات مرة أخرى. إن الكراهية عادة ما تتضخم مع الوقت. من الجيد أن نتذكر أن المعارك تستمر عبر الأجيال، وبعد نسيان الأسباب الحقيقية بكثير. ببساطة فإن المعارك التى سببها القهر الحالى أو الإهانات أو الظلم، ستضخم الكراهية والرغبة فى الانتقام وأعمال الإرهاب.

إن أعمال الإرهاب لا تحتاج حتى إلى استثارة. يكفى أن تصدُر إشاعة أو اقتراح بأنه ستتم عملية وينتشر الخوف فى كل مكان، فيتحتم جمع المليارات من أجل المزيد من الأمن. لا تكلف الإشاعات الإرهابيين شيئًا، ولكنها تعطل المصالح وتزيد التكاليف وتتسبب فى خسائر وتحبط الاقتصاد. ولكن لا يمكن تجاهل الإشاعات، فقد يتم اعتداء على هدف من ملايين الأهداف، فيتم لوم المسئولين عن الأمن وسيتحتم بذل مجهودات أكثر تكلفة من أجل حماية تلك الملايين من الأهداف من هجمات فى المستقبل. يمكن ألا تحدث هجمات لمدة ٥ شهور أو سنوات، وتضيع إجراءات الأمن والمصروفات سدى. ولكن يجب على مجهودات الحماية أن تستمر، ضباط على الطائرات، أفراد أمن فى كل ميناء، وفى السفن فى وسط البحر، رحلات ملغاة، محطات قطارات مؤمنة بالحراسة، كل ذلك وأكثر يجب أن تستمر ما دام المحبط والمقهور يشعر بكراهية ومرارة

كافِيتين ليخاطر بحياته من أجل الانتقام ممن أخذوا منه أعز ممتلكاته وأرضه وكرامته وشرفه. بعيدًا عن الخوف الأبدى، فلا يوجد مجد كذلك للمحاربين المعادين للإرهاب. ما فائدة أن تصبح رئيس أكثر دول العالم نفوذًا إذا كنت تحتاج إلى ١٠,٠٠٠ ضابط شرطة ليحموك عندما تخرج من بيتك. إنه من المخزى أن يحتاج قائد منتخب إلى حماية دائمة. ولكن إذا كنت توافق على الاغتيال فلا بد أن تقبل خطر الاغتيال، فمن يعيشون بالسيف يموتون به.

إن الحرب فى فلسطين لا تزال مستمرة منذ عام ١٩٤٨م. إذا اهتممنا بفحص هذه الأزمة فلا يمكن إلا أن نلحظ أنها تتصاعد خلال كل هذه السنوات.

أولاً، حاول الفلسطينيون أن يستعيدوا أرضهم عن طريق التماس ذلك من الرأى العالمى، من الأمم المتحدة. ولكن الالتماسات مرت بغير اعتبار، فحاولوا أن يجدوا أصدقاء لخوض حرب تقليدية.

حاولت مصر وسوريا والأردن أن يُعِدن أرض الفلسطينيين إليهم من بعد احتلال الإسرائيليين لها.

ساند الأوروبيون العرقيون إسرائيل، وهم الذين أوجدوا إسرائيل فى سعيهم إلى حل المشكلة اليهودية الخاصة بهم، وانهزم الفلسطينيون وأصدقاؤهم العرب. فشلت بعد ذلك المحاولات المتعددة لاستعادة الأرض الفلسطينية عن طريق الحروب التقليدية.

انتشى الإسرائيليون بنجاحاتهم وبمساندة الأوروربيين العرقيين لهم، وقرروا أن يضموا الأرض الفلسطينية التى احتلوها.

لم تعد الدول العربية ترغب فى خوض حروب لا تستطيع الانتصار فيها، ولم يؤدِّ هذا سوى إلى زيادة إحساس الفلسطينيين بالمرارة. إذا كان لا يوجد مفر من القتال بغير رفيق، فليكن الأمر كذلك.

لقد بدءوا الانتفاضة وحدهم لجذب انتباه العالم؛ حيث رمى أولادهم الحجارة على المدرعات الإسرائيلية. لم يكن هذا عملاً إرهابيًّا، فلم تُخدَش المدرعات ولم يتأذَّ الجنود الإسرائيليون. لقد ظن الفلسطينيون أن العالم سيأخذ الأمر على محمل الجد ويتحرك.

ولكن الجنود الإسرائيليون ردوا بالرصاص المطاطى والذى آذى الأطفال، فاستمر الأطفال فى رمى الحجارة. فأطلق الجنود رصاصًا حيًا، ليصيبوا الأطفال بجراح أو يقتلوهم. مع ذلك، استمر الأطفال فى قذف الحجارة وأطلق الجنود المسلحون بالسترات الواقية النار على الأطفال ليزيدوا قتلاهم من الأطفال.

ماذا فعل العالم؟ لا شىء. أصدرت الأمم المتحدة بعض الضوضاء التى لا معنى لها، ولكنها لم تفعل شيئًا. أدان المساندون لإسرائيل الانتفاضة وأطفال الحجارة ولكنهم لم يعربوا عن اعتراضهم على قتل الأطفال الفلسطينيين على يد الإسرائيليين. لم يكن هناك بعدُ تفجيرات إرهابية على يد الفلسطينيين، لم يكن هناك أسامة بن لادن، ولا هجمات ضد الولايات المتحدة.

لقد تعاطف العالم العربى والمسلم مع الفلسطينيين وأدان الإسرائيليين والتمس من الولايات المتحدة الداعم الأساسى لإسرائيل، أن تفعل شيئًا. لم يحدث شىء. بدلاً من ذلك أصبحت إسرائيل أكثر اجتراء وغزت واحتلت لبنان وأجزاء من سوريا. ووقف العالم ليشاهد. تم إلقاء المزيد من الخطب فى الأمم المتحدة.

فقد العرب الفلسطينيون، سواء المسلمون أو المسيحيون ليس فقط أراضيهم ولكن تم طردهم من منازلهم ومزارعهم وإرغامهم على ترك ميراثهم ليصبحوا لاجئين يعيشون فى خيام يطوونها، بدون ماء ولا كهرباء ولا صرف صحى. من المؤكد أن اليهود يعرفون ألم التيه. لقد تعطشوا للرجوع إلى الأرض التى طُردوا منها، ولكن بينما يعتقدون فى حق عودتهم، فإنهم لا يعتقدون أن للفلسطينيين الحقوق نفسها. إنهم لا يسمحون حتى بأن يسمِّى الفلسطينيون الجزء المعترف به لهم من المجتمع الدولى بـ(فلسطين). يجب ألا يتمتع الفلسطينيون بدولة تخصهم.

بعد هجر إخوانهم العرب وإخوانهم فى الدين والعالم كله لهم، ربما يجب على الفلسطينيين أن يقبلوا قدرهم. ولكنهم يريدون أن يعودوا كما أراد اليهود من قبل. إذا لم يساعدهم أحد فإنهم سيخوضون معركتهم بأنفسهم.

لا يمكن لأحد أن يوافق على قتل الأبرياء، على أعمال الإرهاب التى لجأ إليها الفلسطينيون اليائسون. ولكن أليس إطلاق النار وقتل الأطفال الفلسطينيين واغتيال زعيمهم

المقعد الشيخ ياسين أيضًا أعمالاً إرهابية؟ لن تهزم حجارة يرميها أطفال على مدرعات مسلحة دولة إسرائيل. ولكن الرد الإسرائيلى وحشى. وهكذا تتصاعد أعمال الإرهاب.

تعتقد إسرائيل أن بإمكانها هزيمة الفلسطينيين عن طريق التفوق على الفلسطينيين فى أعمال الإرهاب. لقد تعدت إسرائيل بكثير إطلاق النار على الأطفال الصغار. بموافقة حكومة الولايات المتحدة الصامتة تحت رئاسة جورج بوش، أضافت إسرائيل الاغتيال كأداة سياسية. فلا تكون حالة رجل كبير السن مريض ومقعد، سببًا فى استثنائه من أن تمزق جسده الذى أنهكه المرض صواريخ إسرائيلية مجهزة فى طائرات هليكوبتر تلقتها إسرائيل من أصدقائها. لكل قتيل إسرائيلى يوجد بضعة من الفلسطينيين الذين قُتلوا ودُمرت قُراهم ومنازلهم عن آخرها.

إن التفوق على الفلسطينيين فى الإرهاب لم ينجح ولن ينجح. إن روحهم قوية بشكل يفوق أن يُكلل ذلك بالنجاح. أنا أعتقد أنه فى حال تبقى فلسطينى واحد على قيد الحياة فإنه سيستمر فى القتال من أجل منزله ووطنه بأى طريقة يستطيعها. إذا خافت الحكومات المسلمة من أن تحارب من أجل الفلسطينيين فإن الفلسطينيين سيستمرون فى معركتهم.

إن الناس لا يفجرون أنفسهم بدون داعٍ، أو حتى بسبب إحباط أو خيبة أمل بسيطة. إنه يحتاج إلى جبل من الغضب لكى يفجر طائرته فى مبنى أو يفجر نفسه بمتفجرات ملفوفة حول جسده. إنهم ليسوا تحت تأثير الخمر أو المخدرات. لا بد أنهم يحترقون بالغضب وبالإهانة وبالإذلال الموجهة لدينهم، ولجنسهم ولاحتلال أرضهم. يقول أعداؤهم إن الفقر هو الذى يتسبب فى تفجيرهم أنفسهم للذهاب إلى الأبدية. هذه واحدة من علامات حالة الإنكار التى يعيشها أعداؤهم الأمريكيون. إن الأفراد الذين أصابوا بطائراتيهم برج التجارة العالمى لم يكونوا فقراء. كانوا سعوديين أغنياء ومتعلمين لهم أقارب وأصدقاء فى مجتمعهم الغنى. وأسامة بن لادن ليس متطرفًا اجتماعيًّا مصابًا بفقر مدقع. إنه غنى، غنى جدًّا. إنه يستطيع أن يعيش حياة خمول ورخاء إن أراد.

ولكنه قد اختار طريقًا يجعله هدفًا للاغتيال من قِبَل الأعداء الذين صنعهم. قد

يعانى من مصير صدام حسين، أو مصير الشيخ ياسين أو الرنتيسى، ولكن ذلك لن يوقف من ليس لديهم شىء يعيشون من أجله من أن يفجروا أنفسهم ويرهبوا العالم.

لماذا تحدث هذه الأشياء؟ إنها تحدث لأن الأمم المتحدة، المنظمة الوحيدة التى تستطيع أن تساعد على تصحيح الأخطاء المرتكبة فى حق أناس أبرياء، قد فشلت. لقد فشلت لأنها اختُطِفت من قِبَل ذوى النفوذ. لقد فشلت لأن ذوى النفوذ يستطيعون أن يتجاهلوها عندما يريدون. وستفشل ثانية إذا سُمح لصاحب النفوذ أن يتلاعب بها ويستغلها واسمها فى الاستطراد فى سياسته وأهدافه. سوف يستمر الإرهاب الذى يواجهه العالم اليوم. سوف يستمر حتى يُهزم ذوو النفوذ ـ أو حتى يعودوا إلى رشدهم. يجب علينا أن نُقِر بأن انفجار القطار فى مدريد كان هو المتسبب فى تحول عقول الإسبان. من المؤسف أنه فى هذه اللحظة يبدو وكأن الإرهاب قد أتى بالمرجو منه. ولكن إذا رفضنا ـ فى إصرارنا على إثبات أن الإرهاب لن ينتصر ـ أن نفعل الشىء الصحيح، أى أن نرفض أن نزيل أسباب الهجمات الإرهابية، فإننا سوف نستمر فى تحمل الإرهاب بلا نهاية.

يذكرنى ذلك بنظرية الدومينو التى قالت لنا إنه يجب هزيمة ڤييتنام الشمالية بأى ثمن. ولكن ڤييتنام الشمالية لم تنهزم. هل نجد أنفسنا اليوم نسقط الواحد بعد الآخر كالدومينو أمام الشيوعيين؟

أكرر، إن الإرهاب ليس كالحرب التقليدية، لا يمكن للأسلحة المعقدة ولا حتى للرءوس النووية أن تهزم الإرهاب. الهجمات الإرهابية هى نوع جديد من الحرب. إنها حرب الضعفاء ضد الأقوياء. فطالما يوجد هذا الفارق الهائل بين القوى والضعيف فى القدرة على القتل، لا بد أن تحدث هجمات إرهابية ردًّا على أنواع القهر التى يذيقها القوى للضعيف.

فى هذه المرحلة، من المفيد أن نبرز أن الحرب التقليدية ليست بأكثر من إرهاب مُعطَى شرعية. إن المقتولين أكثرهم عُزَّل وليسوا مقاتلين. إنهم ضحايا إرهاب القنابل والصواريخ كضحايا الإصابة فى الهجمات الإرهابية. ولأن الحرب التقليدية ترهب الناس فيجب أن يتم وضعها فى الحقيبة نفسها كأعمال إرهابية مع الهجمات الإرهابية

التى يقوم بها الإرهابيون غير النظاميين. ليس لأحد الحق فى أن يتوج نفسه ملكاً لناصية الأخلاق والحق.

إننا لا نزال نعيش فى عالم بدائى. لا نزال نُقِر بقتل البشر كأداة للسياسة. لقد هبطنا إلى درجة وضيعة لدرجة أنه حتى الاغتيال الفاضح فإننا نقبله. تنفق القوى الكبرى أموالاً طائلة على إتقان أدوات الاغتيال، ثم زيادة إتقانها، رغم شجبهم لقدرة غير النظاميين على الابتكار فى هجماتهم على من يرهبونهم.

حتى يدرك العالم أنه لا يوجد فرق بين الإرهاب التقليدى وغير التقليدى فلن يكون هناك سلام فى العالم. يجب على كل أشكال الإرهاب أن تُوقَف. وستُوقَف فقط إذا رجعنا إلى مائدة الاجتماعات لتحديد أسباب كل أعمال الإرهاب وإزالتها. فى هذه العملية فلا يوجد غير أمم متحدة ديمقراطية تستطيع أن تحل المشكلة بعدل وأمانة وأن تنهى كل أشكال الإرهاب.

ولأن القوى الكبرى هى التى جعلت الأمم المتحدة عقيمة من خلال أساليبها اللاديمقراطية، فيجب أن يوجه اللوم إليها، ويجب عليها هى أن تصلح نفسها وأن توافق على حل للأزمات تحت رعاية الأمم المتحدة من خلال مائدة الاجتماعات.

لقد طُلِب منى أن أتحدث عن «الأمم المتحدة والنظام العالمى الجديد»، ولكنه لا يوجد نظام عالمى جديد لأتحدث عنه، وإنما النظام العالمى القديم، حيث القوة حق، وحيث يقول الشيطان الكلمة الأخيرة.

٣ـ المعرفة واللغز الإسلامى(*)

طالما اعتقدت أن المعرفة تحدد مستوى الحضارة الذى يصل إليه أى مجتمع إنسانى. واليوم أصبحت المعرفة أكثر أهمية من أى وقت مضى.

إننا نعيش اليوم عصر المعرفة. المعرفة، كما نعلم جميعًا، تعنى القوة، والقوة صورة من صور النجاح. لذا فإن المعرفة تعنى النجاح، النجاح فى أى مجال من المجالات التى يخوضها الإنسان.

إننا نعادل النجاح ـ إلى حد كبير ـ بالظاهر ماديًّا. نعتبر أصحاب الثروة ناجحين. هؤلاء الذين يمتلكون السلطة ـ بشكل أو بآخر ـ على مستوى ما يتم اعتبارهم ناجحين.

يوجد بالطبع من يرث السلطة أو الثروة. مع كلٍ، فالميراث يأتى من السلف الذين كان لديهم معرفة مكنتهم من تحقيق النجاح بالماضى. ولكن إذا لم يمتلك الخلف معرفة، فإن السلطة أو الثروة سوف تتآكل حتى تتلاشى. لذا فإن معرفة تطبيق وإدارة الميراث أمر فاصل فى تحقيق النجاح.

تكونت الحضارات الأولى نتيجة لمعرفة الزراعة. بملاحظة النبات والمناخ تمكن الأولون من تقليل اعتمادهم على جمع الطعام وزرعوه بدلا من جمعه. خلق هذا استقرارًا أكبر لمجتمعهم، فاستطاع أن ينمو وتحسنت قدرته على البقاء.

لا بد لمجتمع كبير من أن يكون بين أفراده علاقات معقدة. يجب أن يكون لديه قيادة ومجتمع مجزأ إلى فئات وأعراف، وتقسيم للعمل وأمن، إلخ. كل ذلك يمكن أن يتطور إذا اكتسب المجتمع الزراعى معرفة فى مجالات غير الزراعة. سرعان ما برز أفراد يستطيعون أن يمضوا وقتًا أكثر فى التأمل والتفكير فى الحياة وألغازها بعد أن أصبح لديهم وقت يستغلونه كما يشاءون بعد تحررهم من عبء توفير الطعام لمجرد البقاء.

لقد بدأ السعى من أجل المعرفة فى ذلك الوقت، وبدأ بجدية. اتسع حجم العلم

(*) خطبة بمناسبة تسلم درجة الدكتوراه الفخرية فى علم المعرفة من جامعة الملتى ميديا (MMU) فى ملقا، فى ٢٥ يوليو ٢٠٠٤م.

المتوافر للمجتمع بفضل الفلاسفة والعلماء والمفكرين، لتزداد قدرته على البقاء فى بيئة أكثر تعقيدًا. ظهرت مراكز حضرية كبيرة بالشكل الإدارى الواجب، بالإضافة إلى أدوات السلطة والقدرة على بناء وصيانة مدن كبرى. لقد سمحت معرفة الزراعة فى المقام الأول بظهور حضارة أكثر تطورًا وتعقيدًا.

مرة بعد الأخرى نرى دور المعرفة فى تطور الحضارة الإنسانية. كان واجبًا مثلاً على العربى الجاهلى الجاهل عند إسلامه، وطاعةً لتعاليم الإسلام، أن يتعلم القراءة، أى أن يكتسب المعرفة لكى يستطيع أن يبنى حضارة عظيمة خلال فترة زمنية قصيرة. لقد كانت الحضارة التى بنوها أعلى شأنًا بكثير من حضارات الأوروبيين والآخرين فى ذلك الوقت. وكان ذلك لتخصيص المسلمين العرب الكثير من الوقت لاكتساب المعرفة.

إننا نعرف عن الكثير من علمائهم العظماء، كابن سينا وابن رشد وابن خلدون والفارابى ومحمد بن موسى الخوارزمى. كانوا سباقين على الكل فى مجالات تخصصهم. كانوا هم الذين بنوا الحضارات الإسلامية العظيمة. إن مجرد الغزو والتوسع فى حدود دولة المسلمين لا يمثل حضارة. لقد كان مستوى المعرفة والإحكام الذى جاء معها هو ما أعطى الحضارة الإسلامية مكانها فى تاريخ الإنسانية.

لقد كان الأمر كذلك مع الحضارات الأخرى العظيمة فى العالم. لم يكن المقياس هو سعة الدولة. لقد احتل المغول العالم بدولة تصل حدودها من الصين فى الشرق إلى أوروبا الشرقية وكثير مما هو اليوم روسيا. ولكن نجاح المغول العسكرى لم يجعلهم حضارة عظيمة. لقد كان الرومان هم أيضًا قوة عسكرية، كما كان اليونانيون فى ذلك الشأن، ولكن تقديرهم كحضارات يرجع إلى إسهاماتهم فى زيادة المعرفة بالعلوم من الفلسفة والفنون ومن مبانٍ عظيمة عاشت إلى اليوم.

سبقت الرومان واليونانيين حضارات عظيمة، الفينيقية والبابلية (بين النهرين / العراق) والتى ابتكرت ما يعتقد أنه أول قوانين مكتوبة، وذلك فى هيئة تشريع حامورابى.

بعد ذلك تكونت حضارات الصين والهند والتى أسهمت فى اكتشاف وتطوير معرفة جديدة. حتى حضارات كمبوديا وجاوه فى جنوب شرق آسيا التى كانت نتيجة لمعرفة وثقافة هندوسية معقدة.

من الواضح أن المعرفة ترسم حدود الحضارة الإنسانية. وقد بدأت حضارتنا اليوم بالسعى الأوروبى إلى معرفة يكتسبونها من العرب المسلمين وأجناس مسلمة أخرى. خلال أيام الازدهار للحضارة الإسلامية ؛ حيث بذل علماء أوروبا وكانوا بالأغلب رجال دين مسيحيين، مجهودات جادة لاكتساب المعرفة من علماء المسلمين. وبعدما أعاد الأوروبيون إسبانيا إليهم وأصبح لديهم فرصة مطالعة مكتبات المسلمين، قاموا بترجمة المعارف، ثم تعلموها وطوروها بدون كلل.

بهذه المعرفة خرج الأوروبيون من العصور المظلمة والتى أرجعوا خلالها كل ما لم يفهموه إلى ما وراء الطبيعة والأرواح الشريرة والسحر الأسود، إلخ. أصبحوا بعد تحررهم من تلك الأساطير مستعدين لربط ملاحظاتهم بالواقع وأن يعتمدوا على فكرهم وحواسهم بدلا من أساطير ما وراء الطبيعة. لقد أطلق تحررهم الدراسات التى احتاجت إلى إثبات مادى ومنطقى لأى شىء حولهم. فى البداية، أطلقوا اسم الفلسفة على استخدام إثباتات مقبولة للحواس والمنطق. ولكن تدريجيًا، تم استبدال العلم الذى هو فرع من المعرفة يحتاج إثبات حقيقة الأشياء فيه إلى دلائل فيزيائية ومادية بذلك الاسم.

واصطدم هذا الشرط الجديد ـ أى ضرورة إثبات كل المعرفة عن طريق حواس الرؤية والشم والسمع واللمس والتذوق ـ بالمعتقدات التى أكدت أن كل شىء قد خلقه الله أو قوة ما فوق الطبيعة. أما أن تظهر أنك تؤمن بغير ذلك فهى هرطقة. ونظر رجال الكنيسة إلى أهل العلم نظرة شك، وتمت محاكمة كثير منهم وإعدامهم أو حرقهم كسحرة مهرطقين.

ولكن قبل أن يحدث ذلك للعلماء المسيحيين، كان قد حدث بالفعل لعلماء المسلمين. حين اضطُرت الدول الإسلامية الضعيفة إلى طلب المعونة من البربر المسلمين فى شمال إفريقيا لدحر الهجمات التى قام بها الإسپان المسيحيون.

لقد كان هؤلاء المسلمون من شمال إفريقيا يعيشون تحت حكم المرابطين والموحدين، وهما طائفتان مسلمتان رفضتا كل المعرفة باستثناء التعلم عن الدين. مع استتباب حكمهما فى إسپانيا، حثتا على عدم طلب سوى المعرفة عن الدين. بعد قدوم المرابطين والموحدين لم يعد هناك علماء ولا أطباء أو مفكرون.

من الممكن أن يُقدَّر أن المحرك لهؤلاء المسلمين البربر كان الرغبة فى تطهير تعاليم الإسلام من أية معارف دنيوية متغيرة وربما خاطئة. ولكن فى الحقيقة كان تنفيرهم من التعلم سياسيًّا أكثر منه دينيًّا. لقد كان رفضهم أنواع المعرفة الأخرى لخوفهم من أن هؤلاء المتعلمين سوف يصبح لهم تأثير ونفوذ، وبهذا يضعفون من حكم العارفين بالدين.

بينما فى أوروبا اكتسب العلماء تدريجيًّا الاحترام، نجح المتعلمون دينيًّا فى العالم الإسلامى فى إنهاء الدراسات غير الدينية وضمنوا استمرارية السلطة فى يد المتعلمين دينيا.

وهكذا نرى انعطافًا فى تطور كل من الحضارتين الأوروبية والإسلامية. تمسكَ الأوروبيون بالعلوم لتزداد قوتهم وثراؤهم، بينما اتخذت الحضارة الإسلامية اتجاهًا انحداريًّا. لتفسير هذا الانحدار ولحث المسلمين على احتمال قهر الأوروبيين لهم، أعلن الفقهاء المسلمون أن الدنيا ليست للمسلمين؛ لأن الجنة سوف تكون مستقرهم فى الآخرة.

لأن الحياة الآخرة أكثر أبدية بينما إقامتهم فى الدنيا هى إقامة مؤقتة، يجب أن يعتبروا أنفسهم أفضل حظًا ممن قهروهم والذين يحيون حياة أفضل فى الدنيا فقط. لذلك فلا توجد حاجة إلى طلب النجاح والحياة الحسنة فى هذه الدنيا. كان هناك تجاهل عن عمد لحقيقة أن الإسلام، كما يؤكد القرآن، يدعو المسلمين إلى السعى من أجل الدنيا والآخرة. أصر معلمو الدين أنه يجب على المسلمين أن يطلبوا الحياة الحسنة فى الآخرة بتأدية شعائر معينة والتى تخلع على صاحبها شرفًا فى الآخرة.

كانت النتيجة زيادة فى سعة الهوة بين الحضارة الإسلامية وبين الأوروبيين. كانت تلك هى الطريقة التى انحدرت بها الحضارة الإسلامية، بحيث إنه فى مرحلة ما تم غزو واحتلال كل أقسام أراضى المسلمين من قِبَل الأوروبيين.

وكل هذا هو نتيجة لتدهور المعرفة بين المسلمين وازدهار المعرفة، خاصة المعرفة العلمية بين الأوروبيين.

مرة أخرى نرى تأثير المعرفة على المجتمع البشرى. فالمستعمرات ــ المسلمة وغير المسلمة ــ التى استعادت استقلالها السياسى قد استمرت فى الاعتماد على معرفة

سادتهم السابقين من الاستعماريين الأوروبيين. ولأنهم ليسوا روادًا للمعرفة بالاعتماد على أنفسهم، فمن المرجح أن يظلوا تحت النفوذ الغربى.

ليس مرضهم الفكرى وانعدام انضباطهم هما كل أسباب عدم قدرتهم على اللحاق والتفوق على الغربيين، ولكن أيضًا لهجرة ومعيشة كثير منهم ـ خاصة الآسيويين ـ إلى دول غربية، وإسهاماتهم فى بناء المعرفة الجديدة هناك.

إن سبب عدم إسهاماتهم فى اكتشاف معارف جديدة فى بلادهم هو أنها ما زالت فى كثير من الأحيان معادية للمعارف الجديدة أو ليست مُعدَّة بالمنشآت الضرورية، كالمعامل العلمية التى يستطيعون فيها أن يقوموا بأبحاثهم وتطوير أفكارهم.

وهكذا، عندما أشرق عصر المعرفة العلمية على الأرض، أتت معظم المعرفة البشرية من الحضارة ذات العرق الأوروبى. عصر الصناعة لم يغرب، بل استقوى بعلوم المعرفة، والتى جعلت كل معارف العالم المتراكمة أكثر توافرًا للخاصة وللعامة على السواء.

أصبح توافر المعرفة ونقلها وتخزينها [فى الحاسبات الآلية] ممكنًا بالمعرفة العلمية لتصرفات الشحنات الكهربية. من الممكن إرسال أوامر فتحسب الإجابات، أو تبدأ عملية معقدة من الحساب والتذكر والاسترجاع لمعلومات مخزونة، وحتى الإجابة عن الأسئلة وحل المسائل. يعنى هذا أن تطبيق المعلومات لأى غرض يمكن أن يحدث بسرعة أكبر.

كل هذا يمكن إنجازه بمجرد الضغط على مفاتيح ولمس شاشات. يمكن للإنسان العادى أن يصبح عبقريًّا بمعنى الكلمة من خلال التمكن من عمليات بسيطة جدًّا.

ما يعنيه هذا هو أن مستوى ذكاء كل الناس يمكن أن يزيد إلى درجة تقلل الفوارق بينهم.

بينما بدأ الأوروبيون سباق عصر الصناعة قبل الآخرين، يقدم علم المعرفة الآن الفرصة لكل الناس فى العالم لأن يبدءوا معًا بتوفيره لتكنولوچيا المعلومات المرافقة التى أصبحت اليوم متوافرة للجميع. يستطيع العالم كله اليوم أن يتطور ـ تقريبًا ـ فى الوقت نفسه. لا حاجة لأن يتخلف أحد. كل ما يجب توافره هو الجهد للاستزادة من تكنولوچيا المعلومات وعلم المعرفة اللذين أصبحا حرفيًا على أطراف أصابعنا.

لقد أصبح عصر المعرفة الجديد فى متناول كل إنسان. أصبح ممكنًا خلق حضارة عالمية جديدة. يستطيع المتخلفون اليوم من ناحية التكنولوچيا الصناعية أن يقفزوا مثل الضفدع ويلحقوا بمن سبقهم عن طريق اكتساب الأحدث فى تكنولوچيا المعلومات وعلم المعرفة.

سيظل هناك من لا يقدر على شراء أجهزة الحاسبات وبرامجها. يُفترض أن عالمًا أكثر ثراء واهتمامًا يستطيع أن يمدهم بالأسباب. إذا حدث هذا فسوف نرى توافقًا فى حضارة العالم الجديدة.

مع ذلك، يجب أن نقبل الواقع. والواقع أنه سيكون هناك تنافس شرس بين أجزاء مختلفة من العالم، خاصة آسيا وأوروپا. سوف يكون بحوزة من طالما استخدم العلوم والتكنولوچيا ـ لابتكار أسلحة تستطيع أن تقتل أفضل ـ معرفة علمية تؤهلهم لتحسين أو ابتكار أسلحة جديدة تقتل أفضل وأفضل حتى من سابقتها. وسوف يستخدم ضحاياهم أيضًا معرفة العلم، ربما بطريقة أقل تطورًا ، لينتقموا ممن قهرهم. لن يصبح العالم أكثر سلمًا بفضل معرفة العلم. ولكن هؤلاء الذين سيتجاهلون هذا العلم الجديد سوف يتم السيطرة عليهم وقهرهم بكل تأكيد.

إنه لواجب على من يريدون أن يظلوا أحرارًا، جميعًا، أن يكتسبوا المعرفة والعلم لكى يصبحوا قادرين على الدفاع عن أنفسهم.

٤ ـ تحديات تواجه الأمة المسلمة فى العصر الحديث(*)

إن التحديات التى تواجه الأمة الإسلامية فى المرحلة الحالية من الحضارة الحديثة أكثر من أن تحصى. غالبًا ما سيحبطنا إحصاؤها لأنها كثيرة جدًّا ولا يبدو لها حل.

ولكنَّ لها جميعًا أصلاً واحدًا هو حيرتنا تجاه التفسيرات المختلفة للدين الإسلامى الواحد والذى أُنزِل على رسول الإسلام محمد ﷺ.

فى السنوات المنحرفة فى عمر الإسلام الذى تجاوز ١٤ قرنًا، قام معلمو ووعاظ الإسلام ـ بالإضافة إلى المدجِّلين ـ بتقسيم الدين الواحد البسيط الذى أُنزِل على الرسول محمد ﷺ إلى ألف دين تختلف فيما بينها، وتختلف فى بعض الأحيان عن الإسلام إلى درجة يصعب معها وضعها فى بوتقة واحدة مع الإسلام الذى جاء به محمد ﷺ، الإسلام الذى حوَّل العرب الذين كانوا جهلاء أيام الجاهلية إلى مؤسسى حضارة عظيمة.

بالطبع، فإن الإسلام يسمح بالاختلاف فى التفسير، ولكن إلى أى مدى يمكن أن يكون ذلك الاختلاف عن التعاليم الأصلية الأساسية للإسلام كما هى موجودة فى القرآن والأحاديث الصحيحة؟ بالتأكيد ليس إلى درجة أن يبدأ المسلمون فى اتهام بعضهم البعض بأنهم غير مسلمين. إذا قبلنا كل الاتهامات التى توجهها كل واحدة من هذه الطوائف المختلفة، وإذا قبلنا أيضًا الاتهامات التى نوجهها ضد هذه الطوائف، فلا بد أننا جميعًا غير مسلمين، أى أنه لا يوجد مسلمون فى العالم اليوم.

إننا نرى السنة والشيعة اليوم كل منهم يؤكد بشدة على أنهم مسلمون، ولكنهم يحاربون ويقتلون الآخرين؛ لأن كلا منهم يتهم الآخرين بأنهم ليسوا مسلمين. مع ذلك فإن العالم غير المسلم يعتبر الفريقين مسلمين ولا يفرق بينهما، فيدين الفريقين بكونهما إرهابيين، إلخ.

(*) خطبة فى المؤتمر الدولى عن «الأمة المسلمة فى العالم الحديث»، كاراتشى، باكستان فى ٣سبتمبر ٢٠٠٤م.

بعد ذلك فلدينا الفرق والطوائف الأخرى داخل السنة والشيعة، وما لا يرتبط بأيهما ولكن يصر على كونه مسلمًا حقًا وأن كل الآخرين ليسوا كذلك، ويجب أن يُصحَّحوا، بالقوة فى بعض الأحيان. إن ما يتجاهلونه جميعًا هو أن الإسلام يدين العنف.

نتجت عن هذه التجزئة لدين واحد بسيط مستقيم، منافسة مريرة لإثبات أن كلاً أكثر إسلامًا من الآخرين. يتم هذا بالمظاهر الخارجية أكثر مما هو باتباع أوامر ونواهى الإسلام كما هى موجودة فى التعاليم الأساسية لرسول الله محمد ﷺ.

هكذا فإنه عندما يُعرِّف الرسولُ المسلمَ بأنه الذى يشهد «أن لا إله إلا الله، محمد رسول الله»، فقد كان الرسول بذلك مستعدًّا لوقف قتال مَن استسلم من الأعداء إذا أعلن هذه الشهادة. أغلب المسلمين لا يريدون أن يتقبلوا هذه الشهادة كدليل كافٍ على إسلام الفرد. إننا نحدد شروطًا أخرى كثيرة يجب الالتزام بها وممارستها وإلا فإننا مستعدون للتنديد ولمعاقبة الفرد أو الطائفة باعتبارها غير مسلمة، أو غير مسلمة بدرجة كافية. إننا نفعل ذلك ليس بإجماع الأمة أو من خلال الاجتهاد ولكن بمفردنا نسبة إلى معتقدات مذهبنا فقط.

إن الأزمات بين طوائف الإسلام العديدة حول مسألة الإسلام وتأويلاته قد أرغمتنا على التركيز على إثبات أننا مسلمون، والانشغال عن أمور أخرى يضمها الإسلام.

هكذا ومع أننا كثيرًا ما نقول إن الإسلام يعلمنا أننا معشر المسلمين كلنا إخوة، فإننا لا نظهر أُخوتنا لتدل على إيماننا. إننا كثيرًا ما نتجاهلها تمامًا. بدلاً من الأخوة، فإننا مستعدون لقتل بعضنا البعض. إننا لا نعتبر قتل المسلمين لمسلمين آخرين دليلاً على أنهم ليسوا مسلمين بقدر اعتبارنا انحرافًا بسيطًا فى الملبس دليلاً على نقص الإيمان واستحقاق العقوبة.

فى الوقت نفسه فإننا نتجاهل محرمات الإسلام الأخرى. لم يؤكد دينٌ الحاجة لاكتساب المعرفة كما أكد دين الإسلام. أول كلمة من الله ــ جلَّ جلاله ــ إلى محمد ﷺ كانت «اقرأ». يمكننا أن نتجادل إلى ما لا نهاية حول معنى كلمة «اقرأ»، ولكن لا شك أننا كمسلمين مطالبون بالقراءة، فهى تُكسِب المعرفة.

لفترة ما أدَّينا ذلك بالفعل. كان المسلمون الأوائل مُلمّين ليس فقط بالدين ولكن أيضًا بفروع أخرى من المعرفة. لم يسألوا من أين أتت المعرفة، سواء من مصادر المشركين أو المسيحيين أو اليهود. لم يسألوا عن جنسية العلماء الذين كانوا روادًا فى الدراسات. تعلموا لغات هؤلاء العلماء، واكتسبوا المعرفة، وترجموها إلى العربية، وبحثوا وأضافوا إلى حجم المعرفة المكتسبة.

وقد أصبحوا يُعرفون كرواد الصيدلة والعلوم والفلك والملاحة والرياضيات، إلخ. من خلال عملهم واستخدام معرفتهم بنوا الحضارة الإسلامية العظيمة، والتى تفوقت على الحضارات الأخرى بما فيها الأوروبية فى ذلك الوقت. كان يُنظَر إلى المسلمين نظرة احترام، بل حتى نظرة إعجاب. لم يكن هناك أى قهر أو إذلال للمسلمين كما لم يكن أحد ليجرؤ على اغتصاب أراضى المسلمين بالقوة.

كان المسلمون أقوياء فى دفاعهم عن قدراتهم. وكان هذا أيضًا طبقًا لتعاليم القرآن؛ أنه يجب على المسلمين أن يعدُّوا ما يستطيعون من قوة للدفاع عن أنفسهم ولإرهاب العدو. فى زمن الرسول ﷺ، كان معنى الدفاع هو امتلاك خيل الحرب والسيوف والسهام، ولكنّ مسلمى الحضارة الإسلامية العظيمة أدركوا أن أسلحة زمن النبى ﷺ غير كافية للدفاع عن أنفسهم ولإرهاب العدو. وهكذا بنوا المدفع وماكينات للحصار، كما بنوا المنجنيق والسفينة الحربية، بالإضافة إلى أسنتهم الحديدية المتفوقة. وهكذا تمت حماية الدولة الإسلامية بنجاح. بهذا الشموخ كان إقامة الحضارة الإسلامية، لدرجة أن الإسبان واليهود تحدثوا وكتبوا العربية وتحول بعضهم إلى الإسلام.

ولكن فيما بعد جاء المفسرون للإسلام الذين أدانوا التعلم واكتساب معرفة لا تتحدث عن الدين. أصروا على أن معرفة الدين فقط هى التى تعطى صاحبها شرفًا فى الآخرة وتدخله الجنة.

المعارف الأخرى ليست ضرورية ولن تزيد الإنسان شرفًا لَمن يسعى لها. فيما بعد وُصمَت تلك المعارف بالعلمانية وبأنها ضد الدين. الوحيدون الذين يجب أن يُكرَّموا فى هذه الحياة وأن تكون لهم القيادة فى كل مجتمع ودولة مسلمة هم علماء الدين، حتى

إذا كانوا لا علم لهم بالإدارة والتنمية والدفاع. أما أن تعترض على هذا الرأى فهذا كفر وهرطقة.

واحدة من أبرز الاختلافات بين الإسلام والدينيْن الموحديْن الآخريْن السابقيْن هى أنه لا كهنوت فى الإسلام. بالفعل فقد كان نظام الكهنوت فى المسيحية واليهودية هو الذى أدى إلى الاعتقاد أن متبعى هذيْن الدينيْن قد حادوا عن تعاليمهما.

هكذا لا يَسمح الإسلام بقيام هيكل من الكهنة. لا يوجد بابوات بالإسلام. ولا توجد سلسلة من الكهنة لتتوسط إلى الله لحساب المسلمين الخطَّائين. يتواصل المخلصون مع الله بشكل مباشر من خلال الصلاة. إنه لواجب على أهل العلم فى الإسلام أن يشرحوا التعاليم الأكثر غموضًا كما هى موجودة فى الآيات ذات الطبيعة الرمزية فى القرآن.

ولكن يبدو وكأن بعض أهل العلم قد اتخذوا أدوارًا شبيهة بالكهنة. إنهم يجمعون تابعين بناء على تعاليمهم المعينة وبتفنيد المفسرين الآخرين. وهم يترأسون شعائر المجتمع الدينية إلى درجة أنهم يهددون بعدم تأدية الصلاة على الميت إذا لم يكن من تابعيهم. إنهم يطلبون طاعة عمياء ليس فقط فى شئون الدين ولكن أيضًا فى الشئون الاجتماعية والسياسية.

الصحيح أن الإسلام هو طريقة حياة، ولا يمكن فصل الشئون السياسية والاجتماعية والاقتصادية عن الشئون الدينية. إن فصل الدين عن الدولة غير ممكن فى الإسلام. يجب على الدولة أن تطيع نواهى الدين، ولكن ليس بالضرورة أن يحكمها فقط علماء الدين. لذا، بينما يحث الإسلام على بناء قدرة المسلمين على الدفاع عن أنفسهم، فكيف يتم هذا الدفاع؟ وما هى الأسلحة التى يصنعها ويستخدمها؟ لا يمكن للعارفين عن الدين فقط تحديد ذلك كله. الدين لا يحدد الأسلحة ولا الإستراتيچيات ولا الوسائل. الأوامر فى القرآن هى أن تمتلك القدرة على الدفاع عن الأمة، وأن تلقى الرعب فى قلب العدو. الكلمة الفاعلة هى «الدفاع»، ليست أحصنة الحرب ولا السيوف أو الرماح أو مَن يكون اللواءات. ولكن، وكما نفعل بتعاليم الإسلام الأخرى، فإننا نؤكد الشكل بدلاً من المضمون.

والشيء نفسه مع حكم وإدارة الأمة الإسلامية والدول الإسلامية. إن شكل الحكومة ليس هو المهم، ولكن أن تقود الحكومة الإسلامية إدارة قادرة، وأن تكون قوية، وأن تكون عادلة، وأن تكون لديها القدرة على التعامل مع المتغيرات. لا يوجد ما يقول إن المجتمعات والدول الإسلامية يجب أن تُعيد خلق الظروف والحياة اللتين كانتا موجودتين أيام الرسول ﷺ قبل أن تُعتبر إسلامية أو قبل أن تبقى وتزدهر. الإسلام لكل الأزمان، وليس فقط للقرن السابع الميلادى أو الأول الهجرى. إن محاولة إعادة خلق بيئة القرن السابع الميلادى أو الأول الهجرى تنفى صلاحية الإسلام لكل زمان وبيئة، فهى تضعف الأمة وتظهر الإسلام غير صالح سوى لتأدية الطقوس الدينية. إنها تحبس طريقة الحياة الإسلامية، فتجعلها تناسب الظروف البدائيَّة فقط. كما أننا لا يجب أن نتقوقع ونترك هذا العالم للمشركين بحجة أن الآخرة أبدية ولها فقط يجب أن نعمل. يجب أن نسعى لحسنة فى الدنيا وحسنة فى الآخرة.

عندما يأمر اللهُ المسلمين أن يحاسِبوا أنفسهم قبل أن يحاسَبوا، فغالبًا ما تهتم التعاليم بطلب الرحمة من الله بدون التأكيد بالدرجة نفسها على الأمر بأن يساعد الإنسان نفسه أولاً، تُوصف الدعوات لكل مصيبة حتى عندما تكون المصيبة نتيجة لإهمالنا وفشلنا فى عمل ما هو ضرورى لإنقاذ أنفسنا. هناك ميلٌ لإرجاع كل شيء إلى كونه قدريًّا رغم علمنا أننا عندما نفعل ما هو ضرورى لتجنب المصيبة، فإن نجاحنا هذا يكون قدريًّا هو الآخر. فَلِمَ إذًا لا نفعل شيئًا نساعد به أنفسنا على أن نتجنب المصيبة، بالإضافة إلى الدعاء إلى الله طلبًا للغوث؟. نحن إذن نكون أقرب إلى النجاح عن الجهاد بالدعاء وحده!

هكذا، ونتيجة لكل هذا البعد عن تعاليم الإسلام ـ بسبب التفسيرات المختلفة والحيرة التى تسببها ـ أصبح المسلمون رجعيين وضعفاء وغير قادرين على التعامل مع التحديات العديدة التى تواجههم. يُقتل المسلمون ويُقهرون على يد أعدائهم وربما أكثر على يد مسلمين آخرين. يدرك بعضُهم الحالة المؤسفة التى يعيشون فيها، ولكن أغلبهم ينكرون ويرفضون الاعتراف بالمعاناة والذل اللذين يُضطرون لمعايشتهما. ولكنهم يعتقدون أنه بدون أى جهد من جانبهم فإن الله سينقذهم؛ لأنهم مسلمون ولأنهم دعوا الله طلبًا لنجدته. وأخيرًا فإنهم بالطبع سيُوفَّوْن جوائزهم فى الآخرة. فلا يوجد فى الحقيقة داعٍ للجهاد فى هذه الدنيا لإنقاذ أنفسهم.

إن التحدى الحقيقى الذى يواجه أمة الإسلام فى العصر الحديث هو قول الحق، والاعتراف بأنهم حادوا عن التعاليم الأصلية والأساسية للإسلام، وبهذا تفرقوا إلى ألف ديانة؛ ينتقدون ويدينون ويقاتلون بعضهم البعض ويُضعِفون الأمة.

لا يمكن لنا أن نحدد مَن المخطئ ومَن المصيب بدون أن نُدْخل أنفسنا فى جدال متواصل. ولكنَّ هناك آيات محكمات فى القرآن ليست عرضة للتأويل. إنها عماد تعاليم الإسلام. إنها الآيات التى تُصرِّح بأن المسلمين إخوة، وبأنهم يجب ألا يَقتلوا مسلمين آخرين، وبأنهم يقاتلون فقط مَن يقاتلهم، وبأنه يجب على المسلمين إذا دُعوا إلى السلم أن يستجيبوا للدعاء، وبأنه يجب عليهم أن يسعوا للمعرفة، كل المعرفة، وليس فقط المعرفة عن الإسلام، وبأنه يجب عليهم أن يبنوا قدرة تمكنهم من الدفاع عن أنفسهم وإلقاء الرعب والرهبة فى قلوب أعدائهم بسبب هذه القدرة. إذا ركزنا على هذه الآيات والآيات المحكمات الأخرى، ولم نشتت انتباهنا باختلاف التأويلات فى الآيات الأخرى، عندها يمكن أن نحقق قدرًا من الوحدة، إن لم تكن وحدة مكتملة. أكثر من ذلك، فإن تلك الآيات تستطيع أن تساعد الأمة على التغلب على التحديات التى تواجهها.

قبل كل شىء، فيجب على المسلمين أن يتنبَّهوا إلى الآيات التى تؤكد كثيرًا أننا حين نحكم يجب أن نعدل، وأنه لا إكراه فى الدين، وأن الإسلام يكره المشاكل ومَن يخلقها، وأن الإسلام قبل كل شىء دين للسلام.

يجب علينا أن نرفض مَن يدَّعى أن هناك آيات معينة حُذِفت من القرآن. يجب أن نرفض تبرير الأعمال غير الإسلامية على أساس أن الأوامر المذكورة فى القرآن لم تعد صالحة لعدم اعترافنا بإسلام الآخرين الذين يقولون إنهم مسلمون. إن الدين قوة عظيمة فى الإسلام، ويريد كثيرون أن يسيئوا استغلاله لصالحهم. ولكن رغم ذلك يجب ألا نُضعف تأثير الدين على طريقة حياتنا. يجب علينا بدلاً من ذلك أن نستخدم هذه القوة العظيمة، ولكن طبقًا للتعاليم الأساسية للإسلام التى لا نختلف حولها.

نعلم أن الأتباع الأولين كانوا عربًا جهّالاً فى أيام الجاهلية. كانوا قد درجوا على التعارك وقتال بعضهم بعضًا بدون توقف، وعلى عبادة الحجارة والأصنام ووأد البنات وخطف واستعباد النساء والزواج غير المحدود. لم يشتهروا بعلم ولا بمعرفة، كونهم مؤمنين بالخرافات وبالشك بكل شىء.

ولكننا نعلم أنه عند اعتناقهم للإسلام، استطاع هؤلاء العرب الجهَّال أن يتِّحِدوا وأن يكتسبوا معرفة ومهارات مكنتهم من نشر تعاليم الإسلام وبناء أعظم حضارة استمرت لما يقرب ١٣٠٠ سنة.

كيف لا نستطيع نحن الذين وُلدنا مسلمين أن نبنى حضارة أعظم من حضارة العرب الجهَّال؟ كيف تَخلَّفنا وكيف نستمر فى التخلف. كيف أصبحنا ضعفاء يسهل على أعدائنا وعلى المشككين فينا أن يقهرونا؟

لا يمكن أن يكون الإسلام سبب فشلنا وسبب المصائب التى تلحق بنا. لا بد أن السبب هو بعدنا عن تعاليم الإسلام الحقيقية؛ بعدنا بسبب السياسة، بسبب تطلعات مَن يتطلع إلى النفوذ والجاه الدنيوى. لهذا استعد الكثيرون لإساءة استغلال التعاليم الحقة، ولنشر تأويلاتهم لتبرير تطلعاتهم. بالتأكيد إذا نحَّينا جانبًا التطلعات الدنيوية لطوائفنا وزعمائها ونتحد كمسلمين، وإذا رجعنا إلى تعاليم الإسلام الأساسية كما علمنا إياها الرسول ﷺ، كما هى موجودة فى القرآن وفى الأحاديث الصحيحة، وإذا طبَّقنا هذه التعاليم، وبالتأكيد إذا اكتسبنا كل المعرفة الموجودة فى العالم، بغض النظر عن مصدرها، وإذا أدخلنا القيم الأخلاقية الإسلامية فى تطبيق هذه المعرفة، فإننا نشحذ مهاراتنا إلى أقصى درجة، بالتأكيد إذا استخدمنا هذه المعرفة لتقوية أنفسنا؛ لبناء القدرة على الدفاع عن الأمة والدين، فإننا ننمى دُوَلنا بالثروة التى غمرنا الله بها، نتصدق للمسلم ولغير المسلم، نحكم ونملك أنفسنا وشعوبنا بالعدالة المحفورة فى عقولنا كما فى أوامر الإسلام، بالتأكيد إذا نحَّيْنا التفسيرات الغامضة التى تفرقنا، فعندئذ نكون قادرين على أن نتغلب على أكثرية التحديات التى تواجهنا فى العصر الحديث.

سوف نتسلح جميعًا بالمعرفة والمهارات التى تسمح لنا بإدارة وتنمية بلادنا، بتقويتها بالقدرة على الدفاع عنها التى حضَّنا الإسلام عليها. سنتسلح بأن ننذر أنفسنا للدفاع عن الإسلام والأمة. يجب أن نجد أرضية مشتركة بين طوائفنا المختلفة، وأن نتجاهل أو نحتمل الاختلافات؛ حتى نصبح أقوياء ومتحدين مرة أخرى.

يبدو كل هذا مثاليًّا جدًّا. من السهل أن نتكلم عن أوامر ونواهى الإسلام لنا، ولكن لن يكون تطبيق ذلك سهلاً بالنظر إلى الطبيعة البشرية بغض النظر عن ماهية

الدين. ولكن يجب أن نتذكر أنه حتى النبى ﷺ، رسول الله لم يسلم على يديه ثلاثة أرباع العالم المعروف عندئذ فى يوم واحد، أو حتى طوال الـ٢٣ سنة من زمن رسالته. لقد عانى إخفاقات وانتكاسات لسنوات. حتى عندما نجح فإنه لم يعش ليرى المدى الكامل الذى انتشر الإسلام إليه. لقد رأى جزءًا ضئيلاً من العالم الإسلامى الذى بدأه. لقد عمل خلفاؤه لقرون من أجل بناء الحضارة الإسلامية المجيدة.

إذا لم يستطع النبى ﷺ فعل ذلك أثناء حياته، هل يمكن أن نتفوق عليه؟ لا يجرؤ على ادعاء ذلك إلا أكثر الناس كِبْرًا.

من الواضح أن ذلك سوف يستغرق منا وقتًا. يكفى أن تحاول بعض الدول من بيننا أن تمارس وتطبق تعاليم الإسلام الأساسية كما تم تبيانها.

سوف نبتهل إلى الله أن يهدينا ويساعدنا. ولكن يجب أن نبذل الجهد من أجل إنقاذ أنفسنا من هذا المستنقع الذى نحن فيه، وإذا فشلنا يجب أن نحاول مرة بعد الأخرى حتى ننجح. هذا ما أراده الله منا، وسوف يجزينا الله بجهودنا وبطاعتنا لأوامره.

لدينا من العقول والسواعد ما لا يقل عمّا لدى الناس. نستطيع أن نفعل ما يستطيعون أن يفعلوا. ونستطيع أن نفعل أكثر، فبهذا الفعل نكون فى حقيقة الأمر متبعين تعاليم الإسلام ديننا. هذه عبادة، وسوف نجازى عنها خيرًا فى هذه الدنيا بحياة شريفة وكريمة خالية من قهر الآخرين لنا.

هل سنعاقب فى الآخرة إذا لم نعمل على إعادة الشرف إلى الإسلام والمسلمين، على الدفاع عنهم، وعلى تأدية واجباتنا تجاه الله فى الوقت نفسه؟ لن أجيب عن ذلك. إننا نواجه تحديات يمكن لها أن تحطم إيماننا. فأنا واثق من أنكم تستطيعون الإجابة عن هذه الأسئلة بمفردكم.

إن الأمة تواجه أساسًا تحديًا واحدًا، وهو تحدى الاعتراف بحقيقة أننا ابتعدنا عن التعاليم الأساسية ــ التعاليم الحقة لديننا ــ بسبب تطلعاتنا الدنيوية لأنفسنا ولطوائفنا ولأعراقنا إنه خطؤنا نحن وليس خطأ ديننا، فواجب علينا نحن أن نصححه.

٥ ـ التكامل الثقافى(*)

عندما تتلاقى الثقافات، يمكن أن تحدث ثلاثة أشياء. أولاً، يمكن لثقافة واحدة أن تُهيمِن حتى تذبل الثقافة أو الثقافات الأخرى وتتلاشى. ثانيًا، يمكن أن تختلط الثقافات ببعضها بحيث تظهر ثقافة جديدة خليطة من الثقافات المختلفة. ثالثًا، يمكن للثقافات أن تتعايش، أحيانًا بانسجام وأحيانًا بتأزم. بالطبع فإنه لا يوجد فاصل واضح بين الأوضاع الثلاثة. فقد تتواجد عناصر من وضع أو آخر أو من وضعين فى كل من الأوضاع الثلاثة.

لقد ازدادت حركة الناس فى عصرنا هذا، كما أصبح التنقل بين الحدود أكثر سهولة، وأصبح استمرار الدول بوجود عِرْق واحد أكثر صعوبة. تضم المزيد والمزيد من الدول اليوم أعراقًا متعددة من خلال هجرة الناس ـ من وإلى كل الاتجاهات ـ من أجل حياة أفضل. فى الحقيقة فإن هذا الاتجاه سوف يزداد فى المستقبل؛ بحيث تصبح هناك نسبة مؤثرة من السكان لأى دولة من أصل عِرْقى مختلف عن السكان الأصليين، وسوف ينتمون إلى ثقافات أخرى.

بالإضافة إلى ذلك، فإن العالم ينكمش مجازيًّا. فقد أجبر السفر السريع والاتصالات التليفونية واللاسلكية الآنية الدولَ والشعوبَ وثقافاتهم على أن يكونوا على صلة لصيقة ببعضهم البعض. إذا لم يصبح هناك تفاهم أكبر وسماحة تجاه الاختلافات العديدة بين البشر، سواء فى اللون أوالدين أواللغة أوالثقافة، فلا بد أن تحدث الأزمات، والتى من الممكن أن تتطور حتى تصل إلى درجة الحرب الأهلية.

بسبب كل هذه الاحتمالات لنشوء أزمة، يجب أن نحاول أن نفهم ما يحدث عندما تتلاقى الثقافات ونصل إلى تصور لكيفية التعامل مع النتائج المختلفة لهذا التلاقى.

فى الماضى عندما كان الناس المختلفون ثقافيًّا يتقابلون نتيجة الهجرة أو الغزو، لم يكن هناك مجال للتعايش الثقافى. كان المعتاد أن تسود ثقافة الأغلبية، وأن تعتنق الأقلية أو تُرغم على اعتناق الثقافة السائدة والتخلى عن ثقافتها.

(*) خطبة فى منتدى جمعية محبى فن صلاح طاهر (STAFA) فى الإسكندرية، مصر، فى ٧ سبتمبر ٢٠٠٤م.

هكذا ففى إسپانيا المسلمة، وبرغم احتفاظ المسيحيين واليهود بدياناتهم، فقد اعتنقوا جميعًا الثقافة العربية الإسلامية. لقد تحدثوا العربية وكتبوها، كما اتخذوا أسماءً إسلامية وتذوقوا الشعر والموسيقى العربيين، وبنوا مساكن وبنايات على الطراز العربى. بالإضافة إلى ذلك، فقد اعتنق بعضهم الإسلام.

فى أمريكا أصبحت الثقافة السائدة هى ثقافة الأنجلوساكسونيين الذين غزوا أمريكا الشمالية، وذلك بالقضاء على الهنود الحمر. فيما بعد، اضطُر المهاجرون إلى اعتناق الثقافة الأنجلوساكسونية. فى أمريكا الجنوبية ـ باستثناء البرازيل ـ سادت الثقافة الإسپانية، فلم يقتصر اعتناق الناس كلهم على التحدث بالإسپانية فقط، ولكنهم تحولوا جميعًا إلى الكاثوليكية. ولكن ثقافات الأمريكيتين الشمالية والجنوبية لم تظل راكدة إلى الأبد. فلقد تطورت ثقافات كل منهما إلى ثقافات مختلفة لم تَسِرْ على منوال الثقافة الأم فى أوروپا. مع ذلك، فقد ظلت تلك الثقافات مجتمعة فى سلة واحدة مع الثقافات الأصلية. قد تستمر الثقافة القديمة للسكان الأصليين فى صورة بقايا أو آثار، لهذا فالممارسات الدينية مختلفة خاصة فى أمريكا الجنوبية؛ حيث تختلط ديانات الأمريكيين ـ الهنود القديمة بالمسيحية. أما فى أمريكا الشمالية، فقد اختفت ثقافات الهنود الحمر الأصليين ولكن ثقافات السود أثَّرت على الثقافة الأنجلوساكسونية لتعطيها طابعًا خاصًا.

عندما تكون الجماعات العِرْقية متساوية فى القوة، سواء من ناحية العدد أو لسبب من أسباب القوة والثروة، فلا بد أن يحدث اندماج بين الثقافات المختلفة لتصبح ثقافة واحدة تحتوى على عناصر من الثقافات الأصلية. بهذه الطريقة نتج عن انتشار الإسلام ثقافات خليطة فى بلاد كثيرة من العالم الإسلامى. فتضم اللغات كلمات وتعبيرات كثيرة من اللغة العربية، وكثيرًا ما يُستخدم الخط العربى. ويعكس نظام القيم تأثير العرب المسلمين.عدا ذلك، فمع استمرار اللغات المحلية، حُفِظت الثقافات والقيم المحلية أيضًا.

فى بعض البلاد، تستمر ثقافات البلاد المختلفة الأصلية فى كثير من الأحيان عن عمد. ولكن تزداد الأزمات عندما يحدث ذلك، وقد تُصاب هذه الدول بمشكلات تصل إلى حرب أهلية مزمنة. ولكن إذا كان مستوى التسامح عاليًا فتستطيع الثقافات المختلفة أن تعيش جنبًا إلى جنب.

هنا ـ بعد إذنكم ـ أريد أن أستطرد عن تجربة ماليزيا. ماليزيا دولة متعددة الأعراق مكونة من السكان الأصليين (الملايو) بالإضافة إلى قبائل الساراواك وصباح ؛ سلالة المهاجرين الصينيين الذين بدءوا يأتون إلى ولايات الملايو منذ أكثر من ٦٠٠ عام، قبل الاستعمار الأوروبى، ولقد تم استقدام الهنود كعمالة بالاتفاق مع البريطانيين للعمل فى إقطاعات المطاط. فى مرحلة ما، زاد عدد الهنود عن عدد السكان الملايو الأصليين، ولولا التراجع الاقتصادى فى عشرينيات القرن العشرين ـ عندما رجع كثير من المهاجرين إلى بلادهم، لأصبحت ماليزيا دولة ذات غالبية صينية مثل سنغافورة. خلال فترة الاستعمار، احتفظ البريطانيون بانفصال كل عِرْق جسديًّا. منع ذلك أى أزمات عِرْقية، ولكنه حفظ أيضًا ثقافات المجموعات العِرْقية المختلفة تقريبًا كما هى.

كان أغلب سكان ماليزيا من الملايو إبان زمن صراعات الاستقلال. ولأن حكم البريطانيين فى ولايات الملايو كان عن طريق معاهدات مع سلاطين الملايو، فقد كان لزامًا أن تعود ماليزيا المستقلة إلى حكم الملايو. لن يصبح للهنود ولا الصينيين أى وضع قانونى فى ماليزيا.

لكن قرر الملايو أن يشركوا معهم الصينيين والهنود والآخرين من غير الملايو فى السلطة السياسية. ككل شىء آخر، كانت مقاربة ماليزيا تجاه العلاقات العِرْقية غير تقليدية.

بنى الملايو آمالَ أنهم سوف يندمجون مع الأعراق الأخرى. ولكن هذه الأعراق كانت قوية وكثيرة العدد بدرجة تفوق السماح بحدوث ذلك.

بالإضافة إلى ذلك، كان لدى الصينيين قوة اقتصادية سمحت لهم بمعادلة القوة السياسية لدى الملايو. كما عملت الاختلافات فى ديانات الأعراق الثلاثة المختلفة ضد الاندماج.

لم تلقَ محاولات جعل ثقافة الملايو الثقافة الرسمية نجاحًا كبيرًا. فى النهاية تم قبول أن تحتفظ الأعراق المختلفة كل بثقافته، ولكن أن تصبح ثقافة الملايو إلى حد كبير هى الثقافة الرسمية.

هكذا أصبحت اللغة الرسمية هى الملايو، ولكن يمكن حفظ اللغات الأخرى

واستخدامها كأداة تعليمية فى المدراس. هذا يتناقض بدرجة كبيرة مع دول أخرى لا تسمح باستخدام لغات الأقليات على الإطلاق. الإسلام هو الديانة الرسمية للدولة ولكن يمكن تعليم الأديان الأخرى بدون أى إعاقة. حُفِظت ثقافات الأعراق المختلفة، ولكن أصبحت عناصر من ثقافات غير الملايو جزءًا من الثقافة الوطنية، كما أصبحت ثقافة الملايو هى الأخرى جزءًا من ثقافات غير الملايو.

تم حفظ ثقافات الأعراق الثلاثة بحيث تظل مختلفة بدرجة تفرقها عن بعضها البعض، وفى الوقت نفسه بحيث تفرقها عن ثقافات بلادها الأصلية. هكذا طُعِّمت الصينية المُتحدَّث بها فى ماليزيا بكلمات من الملايو، بينما يستخدم الملايو كلمات صينية لأشياء محددة. والحال هو نفسه مع الهنود.

بات الاختلاف فى ثقافات الأعراق المختلفة بحيث إن ماليزيا يحق لها أن تدّعى أنها آسيا بحق، لأنك تستطيع أن ترى الثقافات الملايو ـ الإندونيسية والصينية والهندية فى ماليزيا، بما فيها أكلاتهم المحلية.

ما يَمكِّن الثقافات المختلفة فى ماليزيا من أن تستمر وتتعايش هو روح من التسامح والعملية التى يظهرها الجميع. يعلم الماليزيون أن أى محاولة لفرض ثقافة واحدة سوف تؤدى إلى ضيق وعدم تعاون، وربما مواجهة عِرْقية. ستصبح الدولة فى هذه الحالة غير مستقرة وغير قادرة على النمو.

إننا نعتقد فى ماليزيا أنه من الأفضل أن يكون لك قطعة من كعكة تكبر عن أن يكون لك كعكة كاملة تنكمش. لقد أدى تسامح الكل لثقافة الآخر أن تصبح ماليزيا آمنة ومستقرة. لهذا أصبح النمو الاقتصادى سريعًا وكَبُر نصيب كل مجتمع أكثر بكثير من ثروة البلاد الاقتصادية الأصلية. لا تَتَّبع وصفة ماليزيا للتكامل الثقافى أى قاعدة جامدة وسريعة، ولكنها نتيجة لطريقة تجاوب تجاه مواقف معينة. لو كان الماليزيون جامدين وغير راغبين فى القيام بتعديلات لما أصبح تكامل الثقافات ممكنًا.

بينما لا يمكن أن تطبق وصفة ماليزيا على كل الدول ذات السكان متعددى الأعراق، فلا شك أن روحًا من السماحة يمكن أن تساعد على التكامل الثقافى. فلا تعلو ثقافة على الأخريات بحيث يجب اعتناقها بأى ثمن.

كثير من الدول تواجه وستواجه مشكلة وجود شعوب ذات ثقافات مختلفة يعيشون معًا. سوف توجد مشاكل فى عملية التكامل الثقافى، وعندما تكون الثقافة السائدة هى ثقافة الأغلبية العظمى، فإن أفضل الحلول هو تبنى الثقافة السائدة. ولكننا نرى مؤخرًا بعض المقاومة من جهة الأقلية، ويجب التعامل مع ذلك بسماحة وتفهم.

هكذا ففى الولايات المتحدة، نجح اليهود والهسپانيون ــ ذوو الأصول الإسپانية ــ فى الاحتفاظ بكثير من ثقافاتهم. فى بعض مناطق الولايات المتحدة، تستخدم اللغة الإسپانية كلغة رسمية وفى التعليم. من ناحية أخرى، نجح اليهود فى الرد على التحيز ضدهم. إنهم يطالبون حتى بحق التمتع بجنسية مزدوجة، كما يجب احترام أعيادهم الدينية. ولكنهم لا يزالون يدّعون أن ثقافتهم أمريكية.

ولكن التكامل الثقافى ليس فقط مسألة وطنية. إنها أيضًا مشكلة دولية. لقد أصبحت كذلك بسبب تطور تكنولوچيا الاتصالات ــ خاصة التليفزيون ــ بنقل الأخبار فى ذات توقيت حدوثها ٢٤ ساعة فى اليوم. لقد نقلت العالمَ إلى حجرة معيشة كل إنسان. ولا بأس بذلك سوى أن الإنجليزية أصبحت ـ بحادثة من حوادث القدر ـ

هى لغة التخاطب فى العالم، واستغل الأوروپيون ــ سواء كانوا يتحدثون الإنجليزية أو لا يتحدثونها ـ الفرصة لتقديم تصوراتهم للأشياء عبر الموجات الهوائية.

بين هولى وود ووسائل الإعلام الإلكترونية، انتشرت ثقافة ذوى العِرْق الأوروپى ــ خاصة الثقافة الأمريكية ــ حول العالم. لا توجد ثقافة فى العالم لم تتأثر بهذه المذبحة الثقافية.

إن ثقافة الأمريكيين ثقافة متحررة جدًّا. أساسها هو حرية الفرد المطلقة. بينما كانت مشاهد الإباحية الجنسية ممنوعة أصبحت اليوم تلك المشاهد الفاضحة متوافرة للجميع على الإنترنت، بمن فيهم الأطفال. لا شك أن ذلك يدمر القيم الأخلاقية للثقافات الأخرى. فى الحقيقة، فإن المشاهد الإباحية تلك ذات صلة مباشرة بالجرائم الجنسية والقتل.

ولكن الأمريكيين لن يتوقفوا عن إذاعة المشاهد الإباحية الجنسية بما فيها أفلام

الفيديو على الإنترنت ؛ حيث تصر ثقافتهم على أن الحرية أهم بكثير من دمار القيم الأخلاقية الذى يمكن أن تتسبب فيه تلك الحرية.

إن الثقافة العِرْقية الأوروبية اليوم تسمح بكل شىء لدرجة أن المثلية الجنسية والزواج من الجنس نفسه كادا يصبحان محل تشجيع. حتى رجال الدين يمكن أن يعلنوا مثليتهم باسم الحرية. يتم الكشف عن أجساد النساء لبيع كل شىء من السيارات إلى المشروبات. وبالفعل ، تكشف الملابس التى يرتدينها أكثر مما تستر. ولكن إذا نظر أحد إلى المناطق المكشوفة ، فإن ذلك يُعَد مضايقة جنسية ويمكن أن يُقاضَى مَن يفعل ذلك وأن يدفع الملايين كتعويض.

إن المجتمع العِرْقى الأوروبى محل جدل. يمكن أن تتم مقاضاة الأصدقاء وأفراد الأسرة بالملايين إذا وقعت حادثة أُضير فيها شخص ما.

لم يعد للحب مكان فى ثقافة ذوى العِرْق الأوروبى ؛ لأنه لم يعد يفسر سوى على أنه العملية الجنسية. لا توجد مشاعر رغبة فى الود بين الرجل والمرأة. الرغبة الوحيدة هى الرغبة فى العملية الجنسية ، لذاتها ومتجردة تمامًا من المشاعر النبيلة. بعد إشباع الرغبة الجنسية تكون العلاقة قد انتهت.

يولد أطفال فى هذه العلاقات العابرة لا يعرفون مَن آباؤهم. وبذلك يمكن لأخ وأخت أن يقترفا السفاح ويُولد لهما أطفال. فى الواقع ، فإن منع السفاح قد أصبح محل جدال هو الآخر. لماذا لا يستطيع الإخوة والأخوات أن يتزوجوا إن أرادوا؟

من الواضح أن ثقافة ذوى العِرْق الأوروبى ـ والتى يتم الدعاية لها كثقافة العالم ـ تهدد الثقافات الأخرى فى عالم من الدول التى لم يعد ممكنًا الفصل بينها بالحدود. كيف يتعامل العالم مع ذلك؟ كيف يحفظ غير الأوروبيين ثقافاتهم إذا أرادوا عدم تلويث أنفسهم من خلال السيطرة أو الاندماج أو التكامل؟

إحدى القيم التى يتم الدعاية لها من قِبَل ثقافات العِرْق الأوروبى ؛ هى قيمة حرية التعبير، وحرية الصحافة. عندما تم طرح ذلك لأول مرة ، كانت الصحافة والحديث محدودين فى مجال انتشارهما. على أى حال ، فالمجتمعات الأوروبية التى نادت بتلك الحريات كانت محافِظة ولم يسمح نظام قيمهم فى ذلك الوقت بهذه الدرجة من الحرية المجتمعية.

ولكن مع قبول مبدأ حرية التعبير، بدأ تأويلها يتسع ويزداد عمقًا، فما كان يُحَرَّم عند بدء طرح حرية التعبير أصبح لا يمكن تحريمه إذا كان للمجتمع أن يدعى الحرية بغض النظر عن مدى كونه جارحًا للآخرين.

يتم أيضًا إعادة تأويل العدالة بمعنى الحرية. نسمع اليوم أن استقلال دولة لا يعنى أن الدول الأخرى لا تستطيع فرض تغيير حكومة تلك الدولة المستقلة وأن تحل محلها أخرى تتوافر فيها صفات معينة. إذا كانت شعوب الدول لا تريد قبول الثقافة التى يتم فرضها عليها، فذلك ليس سببًا لعدم استخدام القوة من أجل التأكد من قبول تلك الثقافة. لا يهم فارضى الديمقراطية الليبراليين فى شىء أن استخدام القوة يتعارض مع فكرة حرية الاختيار.

لا يزال تطور ثقافة التحرر أو الليبرالية مستمرًا. باسم الحرية يمكن أن يتم فعل أى شىء. ولكن لا توجد حرية لرفض ثقافة الحرية المطلقة تلك.

فى ظل كل هذا، هل يمكن أن يحدث تكامل ثقافى؟ ألا يمكن للثقافات أن تعزل نفسها، وأن تحفظ نفسها؟ هل يلزم أن يكون هناك تكامل عندما يُتوقَّع منه أن يدمر ثقافة ويحفظ فقط اللاأخلاقية كما تظهرها ثقافة ذوى العِرْق الأوروبى؟

لقد دار حديث حول صدام الحضارات. إن الأزمة الحالية بين المسلمين وذوى العِرْق الأوروبى ليست صدامًا للحضارات. إنها لا شىء غير صراع المسلمين لاسترداد أرض سُلِبت منهم لخلق دولة إسرائيل. أرجعْ لهم الأرض وسوف يعيش المسلمون فى سلام مع الإسرائيليين ومع مؤيديهم من ذوى العِرْق الأوروبى.

ولكنّ صدامًا للحضارات يبدو وكأنه فى طريقه إلى الفوران. لا يستطيع المسلمون وآخرون كثيرون قبول ثقافة العِرْق الأوروبى. إنها ليست ثقافة مسيحية. إنها ليست لها علاقة بالدين، بل هى ثقافة ضد الدين قوامها إشباع رغبات الذات الحيوانية.

لا يوجد مجال للتكامل هنا، حتى فى قيم كالعدالة واللعب النظيف. إن الثقافة التى يدعو لها ذوو العِرْق الأوروبى لتصبح الثقافة العالمية يجب أن تقتصر عليهم وحدهم. لا يجب أن يتم السماح لهم بأن يُكمِّلوا بها الثقافات الأخرى فقط؛ لأن الثقافات الأخرى سوف تفشل وتتهاوى عندما يتم رفض قيم أخلاقية وإعادة تفسيرها لتعنى

شيئًا آخر. هكذا فإن ما يقول عنه دينهم نفسه أنه خطيئة يمارسه حينئذٍ دعاتهم الروحانيون كفضيلة.

يمكن أن يحدث تكامل بين بعض الثقافات كما ذكرت سابقًا. ولكن لا يمكن أن يحدث تكامل بين الثقافات الأصيلة لحضارات آسيا وإفريقيا مع ثقافة ذوى العِرْق الأوروبى.

إن التنوُّر الحديث المبنى على العلم يرفض الاعتقاد فى المجازاة عن الذنوب. ولكن عندما لا تعرف شعوب العالم آباءها وتمارس الفاحشة ؛ العلاقات الجنسية المثلية والظلم وقهر القوى للضعيف وتُقدِّس باسم ثقافة التحرر، فمن الممكن جدًّا أن يكون الجزاء هبوب رياح غضب الله على العالم.

يجب أن نبقى حذرين كى لا تدمر الرغبة فى تكامل العالم القِيَم الأخلاقية العالية التى نُعلِى من شأنها ونحافظ عليها.

٦ـ القيادة الآسيوية(*)

لا يمكن الجدال حول الدور الحيوى للقيادة فى أى منظمة أو جهة. هذه معلومات عامة. يسود اعتقاد فى عالم اليوم أن الأتباع المحتملين سيعرفون مَن يختارون كقائد أو قادة. هذا هو الافتراض الذى على أساسه تقوم الديمقراطية.

نظريًّا، تسمح الديمقراطية للشعوب باختيار قادتها. وعندما تختار فذلك يكون لأنها تعرف صفات القادة المختارين. ولأن الشعب يختارهم، فإن القادة يشعرون بواجب نحو الشعب، وسيجتهدون من أجل الخير له.

وهكذا أصبحت الديمقراطية هى النظام الوحيد الذى تتبناه الديمقراطيات القوية. لا يُسمح بأى نظام آخر، ويكون عقاب الفشل فى تبنى النظام الديمقراطى شاملاً، ليس فقط للأحزاب الرافضة لتبنى الديمقراطية، ولكن أيضًا لكل الشعب، برىء أو غير ذلك؛ النساء والأطفال والعجائز والمرضى والمعاقين، ولا يُترَك أحد. يجب عقابهم جميعاً برغم أنهم ليس لديهم أى سبيل لاختيار قادتهم ديمقراطيًّا.

وهكذا نرى اليوم عقوبات تُفرَض، وحصارات وغزو واحتلال لدول غير ديمقراطية، لا يهم إذا لم تمس هذه الأفعال المناضلين الحقيقيين للديمقراطية. يجب على المواطنين العاديين أن يتألموا ويدفعوا ثمن عدم قدرتهم على تغييرحكوماتهم غير الديمقراطية.

لا يجد الديمقراطيون غرابة فى فكرة فرض الديمقراطية من الخارج وليس ديمقراطيًّا من الداخل. قتل الرجال والنساء والأطفال والعجائز والضعفاء، وحرمانهم من العلاج الطبى مُبرَّران لأن موتهم سيأتى بالديمقراطية. الاغتيال والقتل وتدمير المساكن، إلخ.، كله جائز إذا كان الهدف هو المجىء بحكومات ديمقراطية. إذا فشل ذلك كله، فلا حرج أيضًا لأن النية كانت تحقيق الديمقراطية.

(*) خطبة فى الندوة الثانية من مجموعة ندوات هو ريه هوا العامة فى سنغافورة فى ١١ أكتوبر ٢٠٠٤م.

انظر إلى اليابان، قنبلتان نوويتان وأصبحت ديمقراطية تمامًا. فلِمَ لا نعرض دولة للمجاعة ونحرمها من الدواء ونضربها بالقنابل والصواريخ إذا كانت النتيجة النهائية لذلك هى الديمقراطية؛ فتصبح حكومة الشعب من الشعب وللشعب؟ الشعب هنا هو الناس الموَافق عليهم من الداعين إلى الديمقراطية.

ولكن هل حقًّا سيخلق حق اختيار القادة جنة على الأرض للمجتمع وللدولة؟

توجد قرائن تشير إلى عدم فهم كثير من الآسيويين لمغزى الديمقراطية ولما يمكن أن ينتج عن العملية الديمقراطية.

فى ديمقراطيات ذوى العِرْق الأوروبى القديمة المعقدة، لم تؤد حقيقة أن كل إنسان يمكن أن يصبح قائدًا لمحاولة كل إنسان أن يصبح قائدًا، فشعبهم هادئ قليل الانفعال. إنهم يكوِّنون حزبين أو ثلاثة أحزاب وتوجد فرصة لكل حزب أن يحوز على دعم الأغلبية، ويكوّن حكومة لها مصداقية وصلاحية.

ولكنّ الآسيويين يميلون إلى تكوين عشرات الأحزاب؛ لأن هناك المئات الذين يَودُّون أن يصبحوا قادة.

ماذا سيحدث عندما ينقسم الناخبون إلى عشرات الفرق، ربما بسبب الأيديولوچيات المختلفة، ولكن غالبا بسبب الاختلاف فى العِرْق أو الدين أو الانتماء إلى مناطق وولايات، أو لأن الذين يؤيدونهم من المرشحين لديهم القدرة على تمويل تأسيس حزب؟

قد لا ينتج عن الانتخابات وصول أفضل المرشحين إلى السلطة. من الممكن للرشوة والبلطجة والتطاول بالكلام والخداع باسم الدين والمحسوبية، بالإضافة إلى أساليب دنيئة أخرى أن تأتى بالنصر لأقل المرشحين أهلية لقيادة الدولة. من ناحية أخرى، فلا يمتنع الناخبون هم الآخرون عن التهديد وطلب الرشوة، إنهم يطلبون مطالب غير معقولة خاصة من المرشح الذى تؤيده الحكومة. سيطالِب مجتمعُهم أو قريتهم أو قادتهم المحليون أو هم أنفسهم بمطالب من أجل وجاهتهم أو بمشروعات غير ضرورية. إنهم يطالبون بأموال لتغطية ثمن الحملة الانتخابية والتى غالبًا ما تصب فى جيوبهم. يمكن

لماكينة الحزب أن تتوقف خلال الحملة، وعندها يجب صرف الكثير من الوقت والمال والوعود حتى تعمل الماكينة مرة أخرى. سيهدد القادةُ المحليون ذوو النفوذ أو المرشحون الذين لم يتم انتخابهم بسحب تأييد تابعيهم. وسوف يحتاج الأمر إلى مزيد من المال.

فى سباق متقارب يكون كل صوت مهمًا. لا يستطيع المرشحون ولا أحزابهم أن يتحملوا فقد أى شخص. إن فقد مؤيِّد واحد يتطلب تعويضه باثنين، واحد بدلاً من المفقود والآخر لتعويض أنه قد أدلى بصوته لصالح المنافسين. لا يهم إذا كان المرشح ــ على المستوى الشخصى ــ غير مؤهل نهائيًّا للقيادة، سيتم تأييده نكاية فى المرشح الذى فشل فى التعامل مع مطالب وتهديدات قلة من المصوتين. ليست الأغلبية هى الفائزة ولكنها القلة الماكرة التى تحدد من المنتصر فى صراع متقارب. هذه هى الديمقراطية. فى ماليزيا، لا تتوقف الحملات الانتخابية. إنها تستمر منذ إعلان نتائج الانتخابات الجارية حتى وقت بداية حملة الانتخابات التالية. يطلق حزب حملته خلال صلاة الجمعة الجامعة وفى كل صلاة جامعة. يظل أتباع الحزب من وقت الغروب إلى ما بعد منتصف الليل فى مقر الحزب. وتهدد مكبرات الصوت بكراهية الحكومة التى يعارضونها.

يظن البعض أنه يجب أن يتم تجاهل ذلك. ولكن الكراهية التى يدعون إليها والخوف من سوء العاقبة فى الآخرة يؤثران على الجماهير عميقة التدين. إنهم يصبحون موقنين بالعقاب الذى ينتظرهم، ولا يمكن لأى تفسير لتلك الخطب على أنها أدوات سياسية واقتناص للأصوات أن يؤثر فيهم أى تأثير. وهكذا، ففى الانتخابات يدلون بأصواتهم ليس لمن لديه القدرة على القيادة ولكن لمن هم محتالون بدرجة تكفى لخداع الناخبين. وهكذا يتحتم على الحكومة وحزبها أن تستمر فى حملتها كل يوم فى السنوات بين أى مناسبتى انتخاب. لا توجد نهاية للحملات السياسية. إنها تمتص طاقة وتشغل وقت الجميع، طاقة ووقت كان يجب أن يُستَثمرا فى حكم وتنمية الدولة.

مع وجود كل تلك الأحزاب المتنافسة فى بعض الدول، ومع الرشوة والتطاول بالكلام والخوف، إلخ، فمن المستبعد أن ينتج عن انتخابات ديمقراطية حكومة قوية يقودها قادة أكْفَاء.

عندما تكون الحكومات ضعيفة، فلا يمكن، حتى لقادة أكْفَاء أن يحققوا نتائج.

سوف يظلون قلقين أبدًا على إمكانية حصولهم على الدعم لأى شىء يريدون عمله، وعلى إمكانية إعادة انتخابهم لكى يتمكنوا من إنهاء أعمالهم.

يمكن أن تُقَال حكومة ضعيفة بسبب ثورات الشارع أو بسبب إضرابات، إلخ. ينتج عن ذلك فوضى ديمقراطية؛ حيث يعانى الشعب من ديمقراطية زائدة.

على الجانب الآخر، تخشى دول آسيوية من أن يصبح قادتها دكتاتوريين، لذا فهم يوفرون فترة انتخابية واحدة فقط لكل قائد. لا يمكن سوى لقائد مُعجِز أن تتحقق على يديه نتائج فى فترة واحدة. لا يمكن لدولة نامية أن تنمو إذا تم استبدال السياسة والخطة ــ كل خمس سنوات ــ على يد قائد جديد، ليترك علامته. إن تعلم قيادة الدولة والإجراءات والطرق المتَّبعة سوف يستغرق عامًا، وسوف يحتاج إلى عامين آخرين لكى يضع سياسة ويحشد تأييد البرلمان لها، إن استطاع. ولا تكفى السنتان المتبقيتان حتى لتفعيل الخطة أو السياسة فضلاً عن ظهور نتائجها.

تسمح بعض الدول الآسيوية بعدد غير محدود من السنوات لحكم القائد. ويعطى الناس للحزب وللقائد أغلبية كافية لتكوين حكومة فى كل انتخابات. يشك البعض فى أن تلك الحكومات ليست ديمقراطية، لأن حزب الحكومة يظل فى سدة الحكم لفترة طويلة جدًّا. ولكن إذا اختار الشعب أن تستمر الحكومة نفسها بالقائد نفسه، أليس حقا ديمقراطيًّا للشعب أن يفعل ذلك، فى حال عقد انتخابات سليمة؟ لن يعود الشعب مرة بعد أخرى لانتخاب حكومة فاسدة تمامًا.

لعل الديمقراطية أفضل نظام للإتيان بقادة أكْفَاء. ولكن كما أشرنا سابقًا فلا يوجد ضمان لأنها ستحقق ذلك.

توجد فى آسيا دول غير ديمقراطية ولكنها استطاعت أن تأتى بقادة يقومون بالقيادة بكفاءة. هذه دول مستقرة أو كانت كذلك وتحقق نموًا مشجعًا. لا توجد فائدة من قول إن شعوبهم تتمتع بحياة مادية أفضل. ولكن تلك الدول قد تعرضت لضغوط هائلة لكى تصبح ديمقراطية. يجب عليهم أن يسمحوا لشعوبهم باختيار قادتهم.

لسوء الحظ، ولفهم ضحل للنظام الديمقراطى، لا تنجح شعوب وقادة هذه الديمقراطيات الجديدة سوى فى خلق حالة من الفوضى. فى العراق مثلاً، لا يمكن

وصف الحالة اليوم بأنها أفضل حقًّا مما كانت عليه عندما لم تكن ديمقراطية. تعانى البلاد من حرب أهلية بمعنى الكلمة. بين الفوضى والحملات العسكرية للغزاة يتعرض المزيد من الأبرياء للقتل والجراح. أصبحت الحياة اليوم أكثر تعاسة ؛ حيث يوجد نقص فى كل شىء ، والخدمات لا تُؤدَّى بصورة سليمة ، ويَضْعُف الاقتصاد. سوف يحتاج الأمر إلى عدة عقود من الاستقرار لبناء العراق. ولا توجد طريقة للتأكد من معرفة متى تتحقق الديمقراطية.

لقد فرض الغزاة حكومة غير ديمقراطية على العراق برغم كل حديثهم حول رغبتهم فى تحقيق تغيير للنظام يؤدى إلى أن يصبح العراق ديمقراطيًّا وأن يثير موجة تغيير فى الشرق الأوسط ، جزء من آسيا. برؤية ما يحدث فى العراق ، فمن المستبعد أن تتبنى الدول الأخرى نظام الديمقراطية. إذا تمت انتخابات حرة ، فمن المرجح أن تفوز فيها التكتلات أو الأحزاب المعادية ــ وبعنف ــ للولايات المتحدة ، ولن يعجب ذلك الأمريكيين. وستُبذَل محاولات أخرى لتغيير النظام.

لقد نسى قادة الديمقراطيات الليبرالية ذات العِرْق الأوروبى هدف الأيديولوچية واهتموا باتخاذ الأيديولوچية نفسها هدفًا ، لذلك كانت الحروب وقتل الملايين لأنهم نسوا أن الاشتراكية والشيوعية وُجِدتا من أجل مصلحة الشعب وليس أن الشعب يجب أن يُقدّم فداءً من أجل مصلحة الأيديولوچيات. لقد احتاج ذوو العِرْق الأوروبى إلى ٧٠ عامًا ليدركوا أنهم قد عكسوا الأولويات.

اليوم يفعلون الشىء نفسه. تتم التضحية بالناس من أجل ممارسة الديمقراطية ، حتى إذا وفَّر نظامٌ غير ديمقراطى حياةً حسنة ، فيجب تدميرها لكى تفسح مجالاً للديمقراطية التى لا يوجد فهم سليم لأعمالها ، والتى من الممكن أن تكون نتائجها أسوأ من النظام الذى جاءت بدلاً منه.

لقد كان للقادة التسلطيين دورهم ـ فى الماضى القريب والبعيد ـ فى انتشال بلادهم وشعوبهم من حالهم السابق إلى ميلاد جديد لهم فى العصر الحديث. لقد كان الإمبراطور الميچى اليابانى ، وملوك سيام ، وشيانج كاى ــ شك فى تايوان ، ودِنْج زياوپنج فى الصين ، پارك شنج هِىْ فى كوريا الجنوبية ــ كانوا حكامًا (تسلطيين)

لبلادهم. من المشكوك فيه أن التغييرات التى استطاعوا القيام بها كانت ستتم لو انتُخِب بدلاً منهم قادة مقلقلون متشبثون بالسلطة. ولكن لولا هؤلاء الحكام لما أصبح هناك حديث يدار اليوم حول الديمقراطية. وبدونهم لكانت بلادهم غارقة فى الفقر والجهل.

فى حال سخرية ذوى العِرْق الأوروبى من هذه الملاحظة، فيجب عليهم أن يرجعوا نظرهم إلى أيام الإقطاع عندما استولوا على مساحة من أراضى العالم ليُثروا بلادهم دون تحويل مستعمراتهم إلى نظام ديمقراطى. ومع ذلك فهم يعتقدون أنه إذا لم يكن ممكنًا تحقيق الديمقراطية للدول الأخرى بطرق ديمقراطية، فيحق لهم استخدام القوة، أن يُجيعوا ويقتلوا البشر، وأن يدمروا دولاً بأكملها لكى تصبح تلك الدول دولاً ديمقراطية.

نعم، بعض القادة الآسيويين التسلطيين يمنعون بلادهم من التقدم. ولكنّ كثيرًا من الدول لا تتقدم لأن قادتهم مشغولون بالاستحواذ على السلطة ـ بطريقة ديمقراطية أو غير ديمقراطية ـ عن أن يعملوا على النهوض ببلادهم. فقد تكون شعوبهم حرة غير معرضة للقهر الحكومى، وحرة أن تغير حكوماتها، ولكنها أسيرة لأغلال الفقر والتخلف التى تشدها أرضًا. لمضاعفة ذلك، فدائمًا ما يقهرهم ويرهبهم دعاة الديمقراطية الليبراليون الأجانب الذين جعلوا منهم عبيدًا بسبب ديونهم.

لمَّا تتحقق بعد للقادة الآسيويين، وللآسيويين عمومًا، حرية الفكر وحرية النظرة الناقدة للأفكار وللأيديولوچيات الواردة من خارج آسيا. لا يزالون مأسورين بذوى العِرْق الأوروبى، ولا يزالون يدورون فى فلك أوروبا. يعتذر كثير منهم لأنهم يظنون أنهم لم يصلوا بجودة عملهم سوى إلى مستويات أقل بكثير مما يتوقعه ذوو العِرْق الأوروبى منهم.

عندما تتم الدعوة لسيادة الديمقراطية لا يجدون ما يقولونه سوى أنهم سيحاولون. عندما قامت دعوة العولمة والتجارة الحرة وعالم بلا حدود أمَّنوا عليها جميعًا. نعم، نعم بالطبع. ثم جاءت دعوة حقوق الأقوياء فى التدخل فى الشئون الداخلية للدول المستقلة، أن تطلب منهم التفتيش على الأسلحة والإصرار على تغيير الأنظمة، والحق فى فرض العقوبات، والغزو، وزرع الديمقراطية بالقوة، ومع ذلك فهم لم يختلفوا

بعدُ، فضلا عن أن يعترضوا، بل إن بعضهم يدعم أعمال الأوروبيين غير الديمقراطية لزرع الديمقراطية فى آسيا.

يتم اليوم تصنيف الدول الآسيوية على أنها أعضاء فى محور الشر، ويتم وصف ستين دولة بأنها دول فاشلة أو مارقة غير قادرة على حكم نفسها. يُفترَض ألا يُسمَح لها بأن تظل مستقلة، ويجب أن يتم تغيير نظامها الحاكم بالقوة.

لم تنبع أى من هذه الأفكار أو الرُؤَى أو الأيديولوچيات من آسيا، ولم يَدعُ لها قادة آسيويون. ربما كانت المرة الوحيدة ـ خلال أكثر من نصف قرن ـ هى عندما طرح رئيس إندونيسيا سوكارنو فكرة الاستعمار الجديد. ولكنّ أحدًا لم يتابعه.

إننا جميعًا مشغولون بمحاولة التوافق مع أفكار قادمة من الخارج، من ذوى العِرْق الأوروبى. مثل الشيوعية، فإننا سننتظر حتى يضيق ذوو العِرْق الأوروبى بأفكارهم عن الديمقراطية، إلخ، وحتى يتركوها قبل أن نجرؤ على أن نفكر فى عمل ذلك.

ومع ذلك فيجب أن نعرف أن الحضارة بدأت فى آسيا. عندما كان ذوو العِرْق الأوروبى لا يزالون يلبسون جلود الحيوانات، كان الآسيويون يحكمون مناطق شاسعة تحت نظم حكم متطورة. دعا القادة الآسيويون إلى السعى من أجل المعرفة، كما دعوا إلى الفنون وبنوا وقادوا دولاً وإمبراطوريات عظيمة. ولكن الآن يجب على القادة الآسيويين اليوم أن ينتظروا مَن يقودهم! إننا نطلب الإذن من ذوى العِرْق الأوروبى للتحدث مع بعضنا البعض. عندما تم طرح التجمع الاقتصادى الشرق آسيوى (EAEC) كخطوة منطقية تماثل تكوين الاتحاد الأوروبى (EU)، ومنطقة التجارة الحرة لأمريكا الشمالية (NAFTA) انتظرنا ـ بتسليم ـ موافقة الأمريكيين الرسمية. حتى اليوم فإننا لا نجرؤ على إطلاق لقب المجموعة الاقتصادية الشرق آسيوية أو ما شابه ذلك على كياننا، ولكننا نختبئ وراء منظمة الآسيان.

لقد فقدت القيادة الآسيوية زمام المبادرة منذ ظهر البحارة البرتغاليون بسفنهم السوداء. لا أعلم إلى متى سوف نظل فى حالة اعتذار ودفاع. فى الحقيقة، فإننا جميعًا خاضعون. إننا لسنا مستقلين. بالتأكيد فقد تم استعمار عقولنا بالفعل. وعندما يتم استعمار العقول، فلا حاجة إلى استعمار الأرض.

أعتقد أن الآسيويين ينتظرون ظهور قائد، قائد من دولة ذات مصداقية. لا يجب على هؤلاء الذين يحْنُونَ جِباههم لذوى العِرْق الأوروبى أن يندهشوا إذا ثارت شعوبهم عليهم، أو قاموا بأعمال إرهابية أو أى شىء آخر. يجب على القادة الآسيويين أن يفهموا ذلك. لقد انتقلت المبادرة إلى الجهات غير المعتادة لأن الحكومات الشرعية يبدو وكأنها قد سقطت من نظر شعوبها. ولأن الجهات غير المعتادة ـ من تعريفها هى ـ غير تقليدية، فلن تكون أساليبها تقليدية هى الأخرى. لا يمكن محاربتهم بالأسلحة التقليدية فى حروب تقليدية. لن يوقعوا على اتفاقيات سلام لإنهاء الحرب. من وجهة نظرهم، فلا يجب أن يُوقِف شىء نشاطاتهم سوى استعادة السيادة والاستقلال الحقيقى، ورجوع الحقوق والعدل.

للقادة الآسيويين أن يفاضلوا بين خيارين؛ أن يتقلدوا ويؤكدوا القيادة الحقة، ويمسكوا بزمام مبادرة الفكر ويُعِيدوا احترام الذات، أو أن يواجهوا ذل الخضوع واحتقار شعوبهم لهم.

٧ـ الأسرة والتنمية(*)

لستُ خبيرًا فى هذا الموضوع، ولكنى قلق من تغير القِيَم بحيث أصبحت فكرة الأسرة مثارًا للسخرية، كما أنى قلق أيضًا من خطر الانهيار الأخلاقى للمجتمع الإنسانى. أرجو أن يكون ما أقوله بهذا الخصوص مفيدًا.

إن القِيم والثقافات ليست ثابتة. إنها تتغير بمرور الوقت وهى بالتأكيد تختلف من مكان لآخر وتختلف بين الشعوب بتعدد أعراقها ودياناتها.

تتغير القِيَم اليوم بسرعة، بحيث إننا لا نقدر على التعامل مع تلك التغيُّرات. قد لا يكون لدينا الوقت لتقييمها ولتقرير رفضها أو قبولها، ومع ذلك فقد يكون للفشل فى التفكير والتقييم وأخذ القرار تبعاته الخطيرة علينا.

لقرون بل حتى لألفيات، كنا على وفاق مع العالم حول مكونات الأسرة. كانت هناك بعض الاختلافات، ولكن هذه الاختلافات نفسها ظلت ثابتة لأغلبنا، فإن الأسرة مكونة من زوج وزوجة وأولادهما. هذه هى الأسرة الصغيرة.

ولكن فى مجتمعات كثيرة تشمل الأسرة الأقارب الأقربين والآباء والأمهات والأعمام والأخوال والعمّات والخالات والأصهار وبعض الأقارب الأبعد رحمًا.

مع ذلك فإن هذه العلاقات تعتبر علاقات دم، سواء من ناحية الأب أو الأم. هذا هو ما يكوِّن العائلة الممتدة.

فى مجتمعات كثيرة، ومن بين المسلمين، يُمارَس تعدد الزوجات، وفى مجتمعات أخرى، رغم أنه لا يُسمح سوى بزوجة واحدة فإن إمكانية الطلاق أو موت الزوجة تعنى أنه يمكن أن يكون للرجل عدة زوجات، وللمرأة عدة أزواج، ولكن فى أوقات مختلفة. يمكن لأسرة شخص أن تشمل إخوة غير أشقاء. يمكن أن ينتج عن زواج طليقين

(*) خطبة أُلْقِيت فى مؤتمر عن الأسرة والتنمية بدعوة من المجلس الأعلى لشئون الأسرة بدولة قطرومؤسسة قطر بالدوحة، قطر، فى ٢٩ نوفمبر، ٢٠٠٤م.

أسرة مكونة من أولاد الزوج وأولاد الزوجة وأولادهما معًا. ثم هناك الأرامل ومن يمكن أن يتزوجوا وينجبوا بعد ذلك منهم، سواء من الرجال أو النساء. كل ذلك مشروع بالقانون وبالدين وبالأعراف.

من الطبيعى أنه يمكن أن ينتمى كثيرون لأسرة واحدة، ولكن دائمًا ما توجد صلة دم بينهم. أما عمَّن يتبناهم الزوجان من أبناء، فقد لا تكون لهم صلة الدم هذه، ولكن المجتمع والقانون يعترف بهم كأعضاء شرعيين فى الأسرة ويجعل لهم اعتبارًا.

لكن مؤخرًا ظهرت تعريفات جديدة للأسرة، منها من يعيشان معًا دون رباط زواج ـ بأطفال أو بدون؛ والأمهات اللاتى يعشن بأطفالهن فى تنقل من علاقة جنسية مع شخص أو أكثر إلى التالى أو التالين دون تيقن من هوية الأب، والشواذ من الذكور أو الإناث (ويتزوجون فى الدول التى يسمح القانون والمجتمع فيها بذلك) مع أطفال يَتَبنونهم أو أطفال من العلاقات الجنسية العابرة، وحتى الأخ وأخته اللذان يعيشان عيشة الأزواج أصبحا يدخلان ضمن تعريف الأسرة. من الواضح أنه بسبب الاعتقاد فى حرية الفرد، بدأ الشواذ، وحتى حالات الأخ والأخت هذه، يفقدان تدريجيًّا مفهومهما كحالتين غير قانونيتين وآثمتين.

مع كل هذه التعريفات الجديدة للأسرة، اختلطت الأعراف والقوانين المتعلقة بالأسرة ودورها فى المجتمع، كما فقدت جدواها فى ضبط المجتمع البشرى. لقد تخللت حالة من الضمور الأخلاقى والفوضى مجتمعَ الغرب الليبرالى، بأعراقه الأوروبية المسيحية اسمًا. وكالعادة بدأ هذا الضمور بشرذمة قليلة، وتمت معارضته فى البداية، ولكن المعارضة قلت وستقل مع مرور الوقت مع دفاع المفكرين المتحررين عن الحرية وحقوق الفرد. ومع انخفاض المعارضة، سيتبنى ويمارس المزيد من الناس الحريات الجديدة، والأعراف الجديدة. فى نهاية الأمر، ستصبح تلك هى الأعراف والقيم والثقافة المقبولة للمجتمع المعنِىّ. العلاقات العابرة ستولِّد أطفالاً لا يعرفون من آباؤهم. بالطبع، يمكن التعرف عليهم من خلال بصمة الحامض النووى الـ(DNA). ولكن معرفة آبائهم قد لا تكون لا سهلة ولا ناجحة. وهكذا يمكن للإخوة والأخوات أن يتزوجوا عن غير علم بأخوَّتِهم. مع مرور الوقت ستصبح تلك الزيجات أمرًا مألوفًا.

سيؤدى هذا التوالد للإخوة إلى نشر لبعض الجينات الحاملة لصفات ضارة، لتُسبِّب الأمراض وحتى الميول الإجرامية. وربما تكون هناك أعراض جانبية أخرى خطيرة.

كانت الأسرة هى الركيزة التى يرتكن إليها المجتمع البشرى والتى تحفظ القِيَم الحسنة فى الثقافات البشرية. الآباء ـ بفطرتهم ـ يعتنون بأولادهم ويحاولون أن يربوهم ليصبحوا أعضاء نافعين للمجتمع الذى يعيشون فيه. كلما اشتدت أواصر الأسرة والعائلة الممتدة قوة، أمكن أن تنتشر المعاملات والقِيَم وأن تستمر داخل المجتمع، والقِيَم الحسنة هى المحدِّدة لاستقرار المجتمع وأدائه وتقدمه، وأيضًا للمستوى الحضارى الذى يصل إليه.

من المؤكد أنه يجب الحفاظ على مؤسسة الأسرة. ولكن يجب على الأسرة أن تكون طبيعية وليست مشوهَة أو بدون دلالة، كما يحدث حين تأخذ فى طاعة شهوات الإنسان الأوَّليَّة. يجب على الأسرة أن تكون نتاج زواج رسمىّ ومقدس يشهده ويعترف به أعضاء الأسرة، ويعترف به أناس من المجتمع. يجب ألا يكون نتاجًا لعلاقات عابرة خالية من أى حب أو مشاعر تتعدى الشهوة الحيوانية العابرة الطالبة لإشباعها. إن مثل هذه العلاقات هى التى ينتج عنها أطفال رُضَّع يتم الرمى بهم إلى سلات القمامة وهم لا يزالون أحياء. ويزداد ذلك انتشارًا بين المراهقين، حتى فى المجتمعات الإسلامية.

بالنسبة إلى المسلمين فإن الزواج ليس فقط تقليدًا، ولكنه نظام يُنظِّمه الدين ويدخل فى نطاقه. والقوانين والممارسات الإسلامية تتسم بالعدل ولا بد أن تُسهم فى تكوين أسر صالحة. يتيح الإسلام بالطبع تعدد الزوجات ولكن توجد شروط واضحة جدًّا يجب موافاتها تنظم وتضمن أن يكون الناتج أسرة صالحة. يمكن الزواج باثنتين، أوثلاث، أو أربع زوجات ولكن إذا لم يمكن العدل بينهن فواحدة. فى ماليزيا، يخاف أغلب المسلمين من أنهم لن يكونوا عادلين لأكثر من زوجة، ولهذا فتعدد الزوجات غير شائع. بجانب ذلك، فإننا مهتمون بأن يكون كل رجل وامرأة متزوجيْن بشكل صحيح وأن يكونا قادريْن على تكوين أسرة صالحة. لتساوى عدد الرجال والنساء تقريبًا فى بلدنا، فإن المرجح أنه فى حال زواج الرجل من أربع زوجات، فسيكون هناك ثلاثة رجال بدون زوجات. سيكون هؤلاء واقعين تحت ضغوط عاطفية قوية،

وقد يؤدى ذلك إلى مجتمع غير مستقر بمعدل مرتفع من جرائم جنس فيها كل أنواع الشذوذ. لأن الإسلام يحرم التفسخ فى المجتمع ، يجب على الرجال فى ماليزيا أن يفكروا بحرص حول ما إذا كانوا يتبعون تعاليم الإسلام عندما يتزوجون بأكثر من واحدة أو ما إذا كانوا يكيفون تلك التعاليم لشهواتهم.

ولكن بغض النظر عن تعدد الزوجات ، فإن مؤسسات الزواج والأسرة فى المجتمع المسلم مُبيَّنة بوضوح فى القرآن. لا داعى لأن يتأثر المسلمون بالاتجاهات الحالية فيما يسمى بالمجتمع الليبرالى الحر. بالفعل يجب على المسلمين أن يجاهدوا من أجل منع قِيَم التحرر من أن تقلل من شأن تعاليم الإسلام حقيقة ، فإننى أؤمن بأنه بمرور الوقت ستحدث فوضى فى مجتمعات ذوى العِرْق الأوروبى الليبرالية المتحررة. إذا كان أهل الكتاب فى زمن الرسول محمد ﷺ اعتُبِروا قد بعدوا بالفعل عن تعاليم دينهم ، فقد ازدادت حدة ووضوح هذا البُعد. إننا لا نرى فقط زواج المثليين جنسيًّا ولكن أيضًا تجرؤ قساوسة على إعلان شذوذهم هذا حتى خلال المناسبات الدينية. وأما عن رد فعل مجتمعاتهم لهذه الإعلانات فكان تقنين هذه الأفعال. عندما تُشرَّع الجرائم فعندئذ يشعر حتى من لا يرتكب أصلاً هذه الجرائم بتحفظ أقل فيرتكبها. وبهذا يزداد عدد المحرمات والخطايا التى يتجاهلها المزيد والمزيد من الناس ، والذين يتوقعون أن يُرفَع الحظر فى نهاية الأمر وأن يصبح جزءًا من ممارسة المجتمع العادية.

نعلم من القرآن ومن قصة سودوم (آل لوط) فى الكتاب المقدس كيف يدمر الله من يمارس اللواط. لا يظن البشر أن مثل هذا ممكن فى عصرنا هذا بغض النظر عن مدى الخطايا أو الجرائم التى نرتكبها. سيرفضون أى اقتراح بأن ما يحيق بهم ما هو إلا عقاب من الله بخطيئاتهم.

وهكذا يرفضون اقتراح أن ظهور مرض جديد تمامًا ، مرض نقص المناعة المُكتسَب (الإيدز) ، هو نوع من القصاص. إننا لا نريد أن نصدِّق بمثل هذا القصاص الدنيوى. ولكن تظل الحقيقة أن الإيدز مرض جديد تم اكتشافه فى البداية بين الشواذ فى كاليفورنيا واليوم هو أكثر وباء انتشارًا وخطورة فى العالم. ربما لا يكون قصاص الله ولكنه ـ وبكل تأكيد ـ ذو صلة فى بدايته بأعمال آثمة.

المؤسف فى الموضوع أن الآثمين الحقيقيين قد تعلموا كيف يتجنبون هذا القصاص، إذا أسميناه كذلك. أما عن الآخرين العالقين فى شباك المرض فهم لا يتمتعون بوفرة مماثلة فى حظوظهم. من المعروف أنه فى مجتمعات ذات قيم وتقاليد راسخة، فإن هذه التقاليد نفسها قد ساعدت على انتشار المرض.

من العُرْف فى المجتمعات ذات النزعة السلفية أنه يجب على الزوجات أن يخضعن لرغبات أزواجهن بدون نقاش. عندما يكون الزوج مصابًا بالإيدز، فينتج عن خضوع الزوجة التام ــ بدون وقاية ــ أن تصاب الزوجة هى الأخرى، وفى النهاية يخرج أولادهما إلى الدنيا وهم مصابون بالمرض هم الآخرون. وهكذا انتشر الإيدز كالنار فى الهشيم برغم تجنُّب ومنع الفواحش.

لا يمكن اعتبار ذلك قصاصًا. ولكن لا يمكن أيضًا تبرئة المجتمع، فالغرض من العادات والتقاليد والتعاليم أن تؤدى لما فيه الخير لنا. ولكن لا يجب ممارسة تلك العادات لذاتها وأن تعلو فوق المساءلة. إن الغرض من تلك التقاليد والتعاليم هو ما يجب أن يكون محور اهتمامنا. إذا لم تتحقق أهداف التقاليد لسبب ما، فيجب أن يتم تعديلها أو تركها.

وهكذا فإن القوانين الإسلامية تهدف بكل وضوح إلى التأكد من تطبيق العدل، وأن يكون العدل هو النتيجة النهائية. يكرر القرآن ويؤكد أنه إذا حكمنا، فيجب أن نحكم بالعدل. ولكن التفسيرات المعروفة لتعاليم الإسلام اليوم تركز على عملية الحكم والعقاب وليس على العدل. يُفترَض أنه إذا تمت العملية فيجب أن ينتج عنها العدل، حتى إذا كان الناتج عنها ظلمًا بيّنًا.

وهكذا، ففى حالات الاغتصاب، يمكن أن يُعاقَب الضحية للاتهام بدون شهود، ولكن المغتصِب ــ رغم تعرف الضحية عليه ــ سيذهب طليقاً. إذا نتج عن ذلك الاغتصاب طفل، يمكن اتهامها بالزنا وعقابها بالرجم إلى الموت. عقاب الضحية وترك المغتصِب ليهرب هو ظلم بيِّن. ولكن المحلفين المسلمين سيستمرون فى الإصرار على الحاجة إلى شهود على الجريمة كضرورة لا غنى عنها. وإذا كانت النتيجة ظلمًا، فيجب قبولها. لا يكون الإسلام ولا تعاليمه على خطأ أبدًا، ولكن التأويلات التى تتجاهل

المضمون، أى التى تتجاهل العدل لمصلحة هيكل الإجراءات والعقوبات، تلك التأويلات هى التى تعطى الإسلام الصورة الخطأ حتى بين تابعيه، وبالتأكيد بين غير المسلمين.

فى حالة العادات والتقاليد وتعاليم الإسلام، وبالطريقة نفسها، فليس خضوع المرأة التام لزوجها هو ما يدعو إليه الإسلام. للزوجة حقوق، وتنحية حقوق الزوجية لأجل ضمان صحة الزوجة والأولاد ليس خطأً فى الإسلام. لا يدور الزواج فى الإسلام حول إشباع شهوة الزوج فقط، ولكن أيضًا حول تربية أولاد بصحة جيدة لحفظ الأمة. إذا أتت ممارسة حقوق الزوجية على حساب تدمير الأسرة والأمة، يكون رفض تلك الحقوق فى محله.

للأسف، فإنه يبدو أن المسئولين عن ممارسة الإسلام لا علم لهم بخطورة مرض الإيدز فى مجتمعاتهم، أو هم فى حالة من الإنكار لتلك الحقيقة. إنهم لم يصدروا فتوى حول هذا الوباء، وبالتأكيد فإنهم لم يفعلوا شيئًا من أجل تنوير المجتمعات الإسلامية المتأثرة بحاجتها إلى فهم التعاليم الحقّة للإسلام تجاه الصواب والخطأ فى العلاقات بين الزوج وزوجته.

رغم أن الأسرة أكثر تماسكًا بكثير فى المجتمعات الإسلامية، فهناك بالفعل شروخ فى هيكل الأسرة. لا يمكن للمسلمين أن يعزلوا أنفسهم عن بقية العالم أكثر من ذلك. لسهولة السفر يختلط المسلمون اليوم بشكل مباشر مع الثقافات الأخرى، بما فيها الثقافات المتحررة المذكورة. على أية حال، فإن شاشات التليفزيون وشرائط الڤيديو تنقل ثقافات وطرق حياة الآخرين إلى داخل بيوت المسلمين مباشرة. شئنا أم أبينا فإن هذا الاطِّلاع سوف يؤثِّر على طريقة تفكيرنا وقِيَمنا وثقافاتنا.

فى ماليزيا، نشهد الانهيار البطىء للقيم الأخلاقية. لقد أصبح الآباء أقل قدرة على تربية أبنائهم وغرس القيم الصالحة بداخلهم. بدون هذه القيم فإنهم يتأثرون بسهولة بما يطَّلعون عليه من صور على شاشات التليفزيون والإنترنت وعلى شرائط الڤيديو. ينتج عن ذلك زيادة معدل جرائم اغتصاب الأطفال والاغتيال وإدمان المخدرات. كما أصبح حَمْل مراهقات المدارس أكثر انتشارًا.

ماذا نفعل؟ هل نحاول أن نعيد خلق العالم كما كان فى عصر مسلمى القرن السابع الميلادى أم نحاول أن نتعامل مع مشكلات عالم أكثر تحررًا من خلال طرق حديثة متوافقة مع الإسلام؟ هذا هو السؤال.

لقد اختارت ماليزيا طريق التحديث، لأننا إذا لم نفعل فسنصبح ضعفاء وسيقهرنا من يُطلَق عليهم قوات التحرر فى العالم. وسوف يحاولون أن يفرضوا نُظُمهم وقِيَمهم وثقافتهم علينا.

وسوف يكون تأثير الشر فى ثقافتهم خارج السيطرة تمامًا، لأننا لن يكون لنا قوة نقاوم بها.

إننا لا نضحى بالأسرة وقِيَمها بمحاولتنا تحديث مجتمعنا. إن التدهور فى درجة أخلاقيات مجتمعنا نتيجة ضعف الأسرة يمكن أن يَبْطُؤ معدله ويصل إلى الحد الأدنى. ولكن قيمة ما فزنا به من حيث قدرتنا على التنافس مع بقية العالم، وحفظ استقلالنا، وإثبات أن الإسلام ليس حاجزًا أمام التقدم، يعوض ويزيد من قيمة التراجع الطفيف فى قِيَم الأسرة بمجتمعنا. البديل الآخر هو الرجوع إلى القرن السابع، أن نكون رجعيين وضعفاء، بحيث يسودنا الأقوياء ويجبروننا على التخلى عن ديننا وقِيَمنا.

لهذا فإنه من المهم أن نراجع أنفسنا نحن المسلمين ـ وهو أمر حان وقته ـ من ناحية بعض الممارسات داخل المجتمعات الإسلامية. بالنسبة إلى شرف الأسرة مثلاً، إننا نقرأ بأسى أنباء مقتل البنات والأَخَوات بدعوى إساءتهن إلى شرف الأسرة بأشكال مختلفة. هل ذلك هو ما يدعو إليه الإسلام؟ فى أى موضوع فى القرآن أو فى الحديث الصحيح نجد أوامر واضحة أو حتى تناولاً غير مباشر من خلال القصص، إلخ، إن البنات والأَخَوات اللاتى لطّخن اسم العائلة يجب أن يُقتَلن؟ هذا الانحياز ضد عضوات الأسرة الإناث أسوأ من وأد البنات فى الجاهلية. إنه نتاج للعادات القَبَلية السابقة للإسلام والتى لا يجب ربطها بحال من الأحوال بالدين.

يتم التحديث اليوم فى كل مكان، بمعدلات سريعة أو بطيئة. وتؤثر المدنية المصاحبة لعملية التحديث فى نظام القِيَم وفى ثقافة الشعب. تصبح العائلة الممتدة نادرة أكثر فأكثر، وبدلاً منها توجد أسرة محدودة بعدد أطفال أقل.

قد تتغير ظروف المعيشة هى الأخرى. فى حالات كثيرة، يعيش المدنيون الجدد فى بيوت عشوائية مكونة من غرفة واحدة. قد يعمل كل من الوالدين، فيُترك الأطفال بغير مراقبة أغلب الوقت. إنهم يدخلون ويخرجون من البيت وحدهم.

كما يتجنب الجيران فى المناطق المدنية الاختلاط مع بعضهم. إنهم لا يريدون أن يعرفوا ما يحدث لجيرانهم. لا توجد فى المدن معاملة الجيران فى القرية. ويمكن أن يؤدى ذلك إلى كل أنواع المآسى. وصلتنا أنباء أناس ماتوا وتعفنوا فى أكواخهم العشوائية بغير معرفة جيرانهم بأنهم غير موجودين ولم يظهروا لأيام أو أسابيع.

توجد العشوائيات فى كل مكان فى العالم. ولكن فى الدول النامية، تكون أحوالها شديدة السوء. غالبًا ما تكون الأكواخ مصنوعة من أخشاب متروكة أو علب كرتونية، بغير صرف صحى سليم وبغير خصوصية. كثيرًا ما يشاهد الأطفال نشاط آبائهم الجنسى. وكثيرًا ما يغتصب آباء بناتهم.

فى هذه الظروف، لا بد وأن يتدهور مستوى الأسرة. فتنتشر جرائم الجنس والجرائم الأخرى، ويكبر الأطفال ليصبحوا غير متوافقين مع مجتمعهم، غير قادرين على تقديم أى شىء لتجويد حياة مجتمعهم.

لا يمكن هدم عشوائيات المدن وإعادة ساكنيها إلى قراهم. بالإضافة إلى أن المدن تحتاج إليهم لأنهم يشكلون عمالة الصناعات الحديثة والأعمال الأخرى.

الحكومة مسئولة هنا عن توفير مساكن أفضل فى مكان العشوائيات نفسه أو فى أماكن سكنية مخططة بشكل سليم قريبة على قدر المستطاع من مكان عملهم. يجب على أصحاب الأعمال أنفسهم أن يسهموا فى بعض هذه المساكن.

سوف يكلف ذلك أموالاً. ولكنه سيكون مالاً مُنفَقًا فى محله؛ لأنه سيقلل من الجرائم والأنشطة الأخرى غير المرغوب فيها فى المجتمع. سيضمن ذلك أيضًا صحة أفضل، مما سيوفر للمجتمع أموالاً أكثر. فى النهاية فإنه سيحدد تقدم المجتمع أو عدمه، وكذلك مدى تقدم الحضارة التى سيبنيها.

بين غموض تعريف الأسرة الحديثة، والتعرض الاضطرارى لقِيَم أخلاقية مختلفة

وغير مقبولة إلى درجة كبيرة، وحاجات التحديث، تواجه الأسرة ـ كما عرفناها فى الماضى ـ احتمال الانهيار أو أن تصبح غير ذات أهمية. السؤال هو، هل نسمح للأسرة كما نعرفها بالانهيار، وبأن تصبح غير ذات أهمية؟ أم نحاول أن ننقذها؟

كمسلم فإنى لا أجد صعوبة فى الاختيار. الإسلام طريقة حياة. لو أن المسلمين لم يكونوا قادرين على التعامل مع المشكلات التى نواجهها فى طريقة حياتنا، فليس ذلك بسبب أوامر وتعاليم الإسلام ولكنّ السبب هو أننا قد فسرنا الإسلام بشكل خاطئ أو أننا فى حالة من الإنكار، فنتحدث عن الإسلام كثيرًا ولكننا نرفض أن نعترف بأننا نعيش فى القرن الحادى والعشرين وليس السابع؛ إننا نعيش فى عصر أصبح فيه ما كان مستحيلاً فى القرن السابع ممكنًا وعاديًّا. إننا نعلم مثلاً أن الإسلام يحرم صور الإنسان والحيوان. ولكننا نرى صور الإنسان والحيوان يوميًّا. لم يعد تحريم التصوير ممكنًا. ولكن الأمر ضد حيازة تلك الصور هو لمنع عبادتها. إننا لا نعبد الصور التى نراها.

سيقول البعض كيف يجرؤ شخص ليس عالِمًا مُعترَفًا به على التحدث حول التفسيرات الخاطئة للإسلام. الإجابة بسيطة. لقد علمنا الرسول ﷺ وجاء بإسلام واحد. أما اليوم، فيوجد أكثر من ألف دين يدَّعى كل منها أنه هو الإسلام. كثير منهم مختلف لدرجة أن تابعى صور الإسلام المختلفة عنهم ـ فى نظرهم ـ ليسوا مسلمين. فى الحقيقة، يصل الالتصاق بتأويل معين إلى درجة الاستعداد للقتال من أجله وقتل المسلمين المنتمين لتأويلات أخرى.

من هم المؤوِّلون؟ فى كل الحالات تقريبًا يكونون الدارسين فى مجال الدين الإسلامى. لا يُعقَل أنه بسبب أنهم دارسون فهم دائمًا على صواب. لا يمكن أن يكونوا جميعًا على صواب إذا اختلفوا فيما بينهم إلى درجة إعلان أن من يختلف عنهم ليس مسلمًا.

لا يمكن أن أقول أى تأويل مصيب وأى مخطئ. ولكن لا يمكن أن يكونوا كلهم مصيبين.

لهذا، يوجد احتياج ـ فى هذه الأوقات العصيبة ـ لكل المتعلمين، مع ذوى المعرفة فى مجال معين، وفى هذه الحالة، التحدى الذى يواجه مؤسسة الأسرة هو أن تجتمع معًا

وتدرس بعناية الوضع وتصيغ حلولاً لمشكلات الأسرة فى العصر الحديث وفقًا لتعاليم الإسلام الحقّة.

لهذا، يجب أن نرجع ـ نحن المسلمين ـ إلى تعاليم الإسلام الأساسية كما هى موجودة فى القرآن والأحاديث الصحيحة ـ حيث لا توجد اختلافات بين الطوائف المختلفة ـ من أجل ضمان أن يلتزم المسلم فى طريقة حياته تجاه أسرته بما ينبغى أن يكون عليه المسلم. توجد حاجة إلى رفض ليس فقط الأفكار الأجنبية الليبرالية، ولكن أيضًا الأفكار المُحافِظة جدًّا والتى يظهر بوضوح أنها ليست إسلامية.

لقد حرَّر الإسلام الجاهليّين من جاهليتهم وساعدهم على بناء حضارة عظيمة. تشير الدلائل إلى أننا ننحدر مرة أخرى إلى ثقافة جاهلية ما قبل الإسلام. سوف يكون مصيرنا الدمار إلا إذا بذلنا جهودًا جادة لمنع ذلك. وأحد هذه المجالات التى تحتاج إلى عناية عاجلة هو مؤسسة الأسرة والزواج والتى ظلت ملائمة لنا كثيرًا خلال تاريخ الحضارة الإنسانية والإسلام. أسرة قوية واحترام لمؤسسة الزواج سوف يسهمان ـ بدون شك ـ فى تنمية الأمة الإسلامية ودولها.

٨ ـ حكم القانون:
القوانين الإسلامية وتفسيراتها(*)

لقد تلقيت تدريبى كطبيب، ولكن كعضو بالبرلمان كنت مشتركًا فى تشريع القوانين. أفترض أنكم تمنحوننى درجة الدكتوراه الفخرية فى القوانين بسبب تلك المشاركة. آمل أن أستحقها. يَنظر إلىّ المحامون فى موطنى نظرة ـ إلى حد ما ـ غير ودية. مرة استخدمت عبارة جاءت فى إحدى مسرحيات شكسبير، نسيتُ أيّها؛ حيث يكتب الشاعر، «أول شىء نفعله، هو أن نقتل المحامين» أو شيئًا بمثل هذا القبيل(**). أعتقد أن نقابة محامىّ ماليزيا لم تغفر لى ذلك. لقد قلتها على سبيل الدعابة بالطبع، وأعتقد أن شكسبير قد قالها على المحمل نفسه هو الآخر.

ولكن حقًّا، إن قوانين الإنسان لا تتمتع بالكمال. لهذا نستمر فى تعديل قوانيننا كل حين. أما عن قوانين الله، فهى تتمتع بالكمال، ولكن للأسف فإننا نحتاج إلى من يفسر لنا تلك القوانين، وهم مجرد بشر. ويمكن أن يكون تفسير هؤلاء البشر لهذه القوانين خاطئًا. يجب أن يكون الأمر كذلك لأنه لكل قانون إلهى يوجد الكثير جدًّا من التفسيرات، ويناقض بعض هذه التفسيرات البعض الآخر. لكن من الصعب تحديد أيها المصيب وأيها المخطئ. وهكذا فإننا لا نحوز الفائدة الكاملة لقوانين الله.

نحتاج اليوم بصفة مستمرة لحكم القانون. أعتقد أنه من الطيب أنه لا تحكمنا نزعات وأهواء الأفراد.

لكن فى ذلك الوقت ـ كما قلتُ ـ كانت قوانين الإنسان بعيدة جدًّا عن الكمال. يمكن أن تكون تلك القوانين جيدة أو سيئة. من الواضح أنه عندما تتحكم بنا القوانين السيئة، لا يمكن لنا أن نكون أفضل بكثير من الحكم التسلطى.

(*) خطبة أُلْقِيت فى مؤتمر بمناسبة تلقى درجة الدكتوراه فى القانون من جامعة دكا فى دكا، بنجالاديش، فى ١٨ ديسمبر ٢٠٠٤م.

(**) العبارة مذكورة بالصيغة نفسها فى مسرحية شكسبير «هنرى السادس» بالجزء الثانى، الفصل الرابع، المشهد الثانى ـ المترجم.

إذا نظرنا إلى القوانين القديمة للدولة العظيمة التى احتلتنا يومًا[*]، لقد كانت تجازى بحكم الإعدام لسرقة شاه. اليوم دارت العجلة دورة كاملة. يُعتَبر حكم الإعدام غير إنسانى، وهكذا يمر القَتَلة باغتيالاتهم دون عقاب.

بعض الناس لا يؤمنون بأن العقاب المذكور سيكون رادعًا. لا بد أن يكون هناك أناس لن يترددوا فى القتل ـ بعلمهم بأنهم لن يُعدَموا لقيامهم بالاغتيال. ولا بد أن يكون هناك أناس ـ بعلمهم بأنهم سيُعدَمون لقيامهم بالاغتيال ـ لن يَقتلوا.

إننا لا نزال نَعدِم الناس فى ماليزيا. يجازى القانون تاجر المخدرات بإعدام واجب التنفيذ. سبب كونه لازم التنفيذ هو أن بعض القضاة يصعب عليهم إطلاق حكم إعدام، فأصر المشرعون على جعل الحكم واجب التنفيذ.

يطلب القانون من القاضى تحديد براءة المتهم من عدمها فقط. فى حقيقة الأمر، فإن المشرِّعين هم من يطلقون حكم الإعدام بصياغة قانون يوجب حكم الإعدام.

مع ذلك فإن بعض القضاة سيدورون حول هذا القانون من خلال طرق فنية مختلفة متضمَّنة داخل القانون. وهكذا فإن المشرِّعين ـ الذين لا بد أن يأخذوا فى اعتبارهم المعاناة والموت اللذين تسببهما المخدرات ـ سوف يشعرون بالحنق.

يجب على القضاة بالطبع أن يكونوا مستقلين. يُفترَض أن عدم تأثرهم بأى شخص سيعطيهم القدرة على تطبيق القانون بحياد. ولكن القضاة أيضًا بشر. لهم مشاعرهم وفى بعض الأحيان تكون لهم ميول سياسية.

يؤثر ذلك على حيادهم وعلى أحكامهم. إذا شعروا بأن الحكومة أو المعارضة ليست عادلة، ربما يفضلون واحدة منهما على الأخرى، بغض النظر عن الصواب والخطأ فى القضية. لقد كانت هناك حالات يُحوِّل القضاةُ فيها فكرهم ليصبح شديد الغرابة، إذا أرادوا الحكم بالبراءة أو الإدانة. فى حالة غريبة، تمت تبرئة رجل من حزب المعارضة قد كشف جسده أمام فتاة مشاركة فى حملة حزب الحكومة لأن الفتاة لم تحضر أمام المحكمة السارونج[**] الذى كانَ يرتديه الرجل. وهناك حالات أخرى شديدة

(*) بريطانيا.

(**) رداء يلفه الرجال والنساء حول الوسط فى ماليزيا وإندونيسيا وجزر المحيط الهادى.

الغرابة عندما يريد القضاة الحكم بالبراءة أو الإدانة. وهكذا فربما لا ينتج العدل عن استقلال القضاة أو حتى أن يكون طبقًا لحكم القانون.

القانون الخاص بالتعرض لهيبة المحكمة جعل الناس يخافون من انتقاد القضاة. كنتيجة، فقد تكون نوعية الأحكام سيئة جدًّا. من الممكن بالطبع عزل القضاة، ولكن العملية شائكة جدًّا لدرجة أنه من الأفضل احتمال القضاة غير الأكفاء عن عزلهم. سيتم إلقاء العدالة مرة أخرى من النافذة.

من الواضح أن النظام القضائى بعيد عن الكمال. ولكن لا يوجد الكثير الذى نستطيع فعله تجاه ذلك. لقد اختفى تقريبًا أولئك القضاة التى أزكمت رائحة فسادهم الأنوف، ولكن الفساد الأخف رائحة ما زال ممكنًا.

فى دولة متقدمة جدّا يتم اختيار قضاة المحكمة العليا عن طريق الرئيس(*). من الطبيعى أنهم سيفضلون الرجل الذى اختارهم. لمنع ذلك، يتعرض المرشحون لاختبار من الحزبين، وتكون نتيجة هذه العملية المهينة أن المحامين الجيدين سيرفضون أن يصبحوا قضاة. إنهم أفضل حالاً من جميع الجوانب فى عملهم كمحامين. الاستنتاج النظرى هو أن يصبح القضاة من المحامين غير الأكفاء فقط. مرة ثانية، لن تتحقق العدالة بهذه الطريقة.

ولكن إذًا، كيف يُنتخَب القاضى؟ فى دولة ما تنتخبهم جماهير الشعب(**). هذا بالطبع يُسيِّس القضاء، فليست نزاهة المرشح هى ما سيحدد انتخابه، ولكن شعبيته واتجاهاته السياسية. وهكذا رأينا قضاة حين يحكمون فى قضية المرشح الفائز بالأغلبية، يفضِّل هؤلاء القضاة مرشح الحزب الذى اختارهم.

النظام القانونى فى العصر الحديث، سواء على أساس القانون البريطانى العام، أو قانون نابوليون، لا يستطيع ضمان العدل. حكم القانون كشعار يخدم أغراضًا سياسية أكثر مما يُستخدم كوسيلة لضمان تحقيق العدل ولحكم أفضل. يجب أن ندرس بدقة الهدف من وراء من يصرُّون على سيادة حكم القانون.

(*) يقصد الولايات المتحدة ـ المترجم.

(**) يقصد القضاة المحليين فى الولايات المتحدة ـ المترجم.

كثير من الدول الإسلامية تطبق قوانين الشريعة الإسلامية. ولكن الغالب هو التركيز على الحدود والعقاب أكثر من العدل، رغم أنه قد تكرر فى القرآن أن «إذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل»(*) وهكذا، فإذا لم يكن ممكنًا إحضار أربعة شهداء، فإن ضحية الاغتصاب يمكن أن تجد نفسها متهمة باتهام باطل. يمكن أن تعاقَب رغم أنها يمكن أن تحدد مغتصِبَها بوضوح. بالتأكيد لا يمكن أن يكون ذلك عدلاً، خاصة فى عصرنا هذا وقد أصبح بالإمكان التعرف على المغتصِب ببصمة الحامض النووى الـ(DNA).

الأسوأ من ذلك أنه إذا أصبحت الضحية حاملاً وولدت طفلاً، يمكن أن تُتهم بالزنا وقد تُرجَم حتى الموت.

هل الشريعة الإسلامية هى الظالمة؟ إنها ليست كذلك. إنه ظلم يحدث بسبب تأكيدنا على العقوبات والإجراءات أكثر من العدل كما يتكرر الأمر به كثيرًا فى القرآن.

إذا كان واضحًا أن العقوبة ظالمة، وبالتأكيد أن عقاب الضحية وليس المغتصِب ظلم تحت أى نظام، فإن قرار القاضى لا يتبع جوهر الإسلام. من الواضح أنه ليست الشريعة الإسلامية هى الخاطئة أو الظالمة، ولكنه التأويل الذى يؤكد الشكل أكثر من مضمون المبادئ القانونية الإسلامية.

يجب أن تعذرنى إذا قلت إن القوانين وتنفيذها ـ أى حكم القانون ـ لا يضمن العدل. إنى أتحدث كمشرِّع كان على عاتقه مسئولية صياغة قوانين تحقق العدل. إننا نشعر بالحنق عندما نجد المحكمة ـ بعد تشكيل القانون بعناية ودقة ـ تتجاهل الغرض أو الهدف.

كثيرًا ما يكون القضاة أكثر اهتمامًا بنَص القانون عن الغرض منه. لا يمكن لنا أن نكتب جملة يكون لها تفسير واحد دائمًا وفى كل مرة. يمكن أن يكون هناك تفسيرات كثيرة. للقاضى خيار نفى الغرض من القانون بتفسير معين لنَص القانون. عندئذ يصبح

(*) سورة النساء: ٥٨، ١٣٥، والأمر نفسه بالعدل والقسط فى آيات سورة المائدة: ٨، ٤٢، الأنعام: ١٥٢، الأعراف: ٢٩، هود: ٨٥، النحل: ٩٠، الإسراء: ٣٥، الشعراء: ٨٢، ص: ٢٦، الشورى: ١٥، الحجرات: ٩، الرحمن: ٩، الحديد: ٢٥، الممتحنة: ٨.

القانون سيئًا ويجب تعديله. ولكنّ القانون المُعدَّل يمكن أن يفسَّر هو الآخر تفسيرات عديدة، ويمكن لحكم القانون أن يؤدى إلى عدم إحقاق الحق.

فى قضية رفعت مؤخرًا بماليزيا، قرر قضاة الاستئناف ـ برغم اتفاقهم على حدوث الجناية ـ تبرئة المتهم لأن النيابة قد أخطأت فى التواريخ المتعلقة بالقضية. ولأن السابقة مهمة فى تحديد حكم القضايا، فقد بطلت دعاوى لفشل النيابة فى إثبات التواريخ. وفى حالة أخرى، تم عدم الأخذ بدليل على اغتصاب طفلة عمرها ١٠ أعوام؛ لأن القاضى أصر على أن الطفلة لم تكن مدركة لخطورة الادعاء.

لا شك أن الحملة لتنفيذ حكم القانون تتمتع بدافع قوى، ولكن ما نحتاج إليه هو حكم العدل. يمكن للقانون أن يكون سيئًا أو أن يساء تفسيره، مما ينتج عنه أن يكون حكم القانون غير عادل.

إننى سأكون سعيدًا جدًّا إذا كان حكم القانون هو كل ما نحتاج إليه ليتحقق العدل. ولكنى أخشى ألا يكفى حكم القانون وحده. هناك أشياء أخرى كثيرة جدًّا نحتاج إلى أن نفعلها قبل أن نرى المجتمع متمتعًا بنوع العدل الذى يُفترَض أن يتمتع به.

أريد فى هذه المناسبة أن أهنئ الطلبة الخريجين. سوف يخرجون إلى العالم ــ وأنا متيقن من ذلك ــ مسلحين بمعرفة أفضل وسيكونون أكثر قدرة على الإسهام لتحسين المجتمع الذى يعيشون فيه.

هذه مناسبة مهمة جدًّا بالنسبة إليهم؛ لأنها تعلن نهاية مرحلة فى تعليمهم الجامعى. ليست هذه هى نهاية طلب المعرفة. إن عملية طلب المعرفة لا تتوقف، بل تستمر من المهد إلى اللحد.

يتلقى التعليم الجامعى عدد من الطلبة أكبر من أى وقت مضى. لا يمكن لهذا إلا أن يحسن من مستوى حياة المجتمع البشرى. نعلم من التاريخ أن مستوى المعرفة يدل على مدى الحضارة الذى وصل إليه المجتمع البشرى.

يأمرنا الإسلام أن «نقرأ». لا بد أن تزيد القراءة من معرفتنا بالأمور. إنها الكلمة الأولى التى بعث بها الله ـ جل جلاله ــ إلى الرسول محمد ﷺ. بالتأكيد يجب أن تكون

تلك الأهمية لأن امتلاك المعرفة يأتى فى المرتبة الأولى لتقدم الإسلام ولتقدم أمة الإسلام.

وهكذا نرى كيف بنى العرب ـ الذين كانوا جهلاء فى الجاهلية ـ حضارة عظيمة بعد إسلامهم. لقد ذهب مسلمو القرون الأولى من الإسلام إلى مدى بعيد لامتلاك المعرفة. لقد ترجموا ودرسوا أعمال الإغريق والفرس والهنود. لقد زادوا على هذه المعرفة حتى وجب على الأوروبيين أن يطّلعوا على مكتبات المسلمين العظيمة لكى يتعلموا تعاليم الفلاسفة الإغريق والعلماء والرياضيين، إلخ. بهذا الجهد أشرقت شمس حضارتهم الجديدة وغربت العصور المظلمة.

لسوء الحظ، بينما كان الأوروبيون يستفيدون من علم المسلمين، قرر المسلمون أنفسهم رفض المعرفة باستثناء معرفة دينهم. كانت نتيجة ذلك هى ما نراه اليوم ـ تأخر المسلمين ونهضة الأوروبيين.

يجب علينا ـ نحن المسلمين ـ ألا نهمل دراسة ديننا، ولكن «أقرأ» ليست منحصرة فى الدين فقط. إن المعارف الأخرى تتساوى فى أهميتها للمسلمين والإسلام مع المعرفة الدينية. بمعرفتنا ذلك، يجب أن نعمل جاهدين من أجل امتلاك المعرفة فى كل المجالات، فى العلوم والتكنولوچيا لكى نستطيع أن نؤدى أمانتنا تجاه الإسلام وتجاه الأمة بشكل أفضل. هذا هو واجبنا لأن تركنا لهذه المجالات هو ما جعل المسلمين ضعفاء يسهل قهرهم.

آمل وأدعو الله أن يستمر من يتخرج منكم اليوم فى البحث عن المعرفة وتطبيقها، ليس فقط من أجل خيركم، ولكن أيضًا للدفاع عن أمة اليوم المقهورة. حقًّا هذا هو واجبنا. لا يجب علينا أن نلوم سوى أنفسنا إذا فشلنا.

أتمنى للخريجين الخير كله وهم يرتحلون إلى المستقبل. مرة أخرى أشكركم لهذه الدرجة الفخرية، ولهذه الفرصة لإلقاء هذه الكلمة اليوم.